الهوّية والشرعيّة

دراسة في التأصيل الإسلامي لمفهوم الهوية

الهوية الإسلامية

شريف محمد جابر



الهويّة والشرعيّة

دراسة في التأصيل الإسلامي لمفهوم الهوية ورفع الالتباسات عنه

شريف محمد جابر

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * تِلْكَ آيَاتُ اللّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعَالَمِينَ * وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ * كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (آل عمران: **100 – 110**).

﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (الحج: **78**).

"...ومن دعا دعوى الجاهلية فهو جثاء جهنّم، قال رجل: يا رسول الله وإن صام وصلّى؟ قال: وإن صام وصلّى، ولكن تسمّوا باسم الله الذي سمّاكم المسلمين المؤمنين" (حديث شريف).



إهداء

إلى الذي علّمني كيف تكون

"جنسيّة المسلم عقيدته"..

مقدمة

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهدِ اللهُ فلا مضلّ له، ومن يُضْلِل فلا هاديَ له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك الله، وأشهد أنّ سيّدنا محمّدا عبده ورسوله.

وبعدُ:

فإنّ تحديد هويّة الإنسان وانتمائه مسألةٌ على غاية من الأهمية في واقعنا الراهن؛ فالهويّة عنصر أساسيّ في بناء الحضارات ونهضة الأمم، إذ تشكّل المنطلق لفهم موقع الإنسان ودوره في هذا العالم وفي المجتمع الإنساني. فحين يحدّد الإنسان هويّته فهو بذلك قد حدّد "غايته" في هذه الحياة، و"المنهج" الذي يضبط أفكاره وحركته بناء على ما تتضمّنه هذه الهوية، وتصوّرَ "الأمّة" التي ينتمي إليها ويعيش قضاياها ويتفاعل معها. فالحديث عن الهوية ليس مجرّد حديث نظري لا رصيد له في الواقع، وإنما هو حديث تشتدّ الحاجة إليه في مرحلة "الغثائية" والضعف والضياع والمهانة والانحطاط والتخلف التي تمرّ بها الأمة الإسلامية، وتتكالب عليها الأمم من كلّ حدبٍ وصوب، والتي شاعت فيها أوضاع الفرقة والتشرذم، والعودة إلى النعرات الجاهلية المنهيّ عنها كالتجمّع والانتماء والتعصّب على أساس "القومية" أو "الوطن"، حتى صارت هذه الروابط التي ترسّبت في عقول أبناء الأمة كأحد أهمّ آثار الغزو العسكري والفكري للأمة، حتى صارت هي روابط الانتماء الأصلية، وأما "الهوية الإسلامية" فهي مجرد رابطة جامعة أقرب ما تكون إلى "الرمزية"! فتفقد رصيدها الواقعيّ الحقيقيّ في ساحة الأحداث الكبرى التي تمرّ بها الأمة.

وانطلاقا من ضرورة تنقية مفهوم الهوية من الغبش الذي التصق به لأسباب مختلفة، وضرورة تحديد المفهوم الشرعيّ الخالص له والالتزام بهذا المفهوم للنجاة في الآخرة، كان هذا البحث الموجز بعنوان: **"الهوية والشرعية: دراسة في التأصيل الإسلامي لمفهوم الهوية ورفع الالتباسات عنه"** ورقة إسلامية خالصة، لا أبتغي منها إلا مرضاة الله سبحانه وتعالى، وتحريكَ العقول المرهفة المخلصة حتى تحدّد موقفها الشرعي من هذه القضية.

وموضوع هذا البحث وغايته التي يهدف إليها هي تجلية مفهوم "الهوية" في الإسلام، ورفع الالتباسات التي حدثت بين هذا المفهوم وبين الهويّات الدخيلة في عصور التأخر والانحطاط الأخيرة التي مرّت بها الأمة الإسلامية، انطلاقا من اليقين الراسخ بأن أولى خطوات إحياء هذه الأمة وإعادتها إلى مكانتها اللائقة بها تبدأ من هنا؛ من إحياء الهوية الإسلامية وتنقيتها من عوامل الغبش التي رانت عليها، والتي أدّت إلى انحسار فاعليّتها في حياة المسلمين، كمحور استقطاب قيميّ، يوحّدهم ويجمع شملهم، وكعنصر هامّ يعرّفهم بحقيقتهم وبأهدافهم في هذه الحياة، ويردّهم إلى "المعايير" الصحيحة التي تحكم حياتهم. أقول: انحسرت فاعلية "الهوية الإسلامية" بفعل عوامل الغبش التي سوف نفصّلها في ثنايا الكتاب- بإذن الله – ونبيّن حقيقتها ونفنّدها، فغدت على أحسن الأحوال عند الكثيرين مجرد شعار يُتنادى به، والتصورات منحرفة عنه، والسلوك مغاير لمقتضياته!

في الفصل الأول: سوف أتطرّق إلى تعريف "الهوية" لغويا وفي الاصطلاح المعاصر، وأبيّن المعنى العام الذي يدور حوله المعنى الاصطلاحي، ثم أبيّن مدى علاقة هذا المعنى بمعاني "الولاء" في الإسلام، بعد أن أتتبّع هذه المعاني من أصولها الشرعية، "فالولاء" هو أحد أركان التوحيد التي لا يصحّ إيمان المسلم مع نقضها، أو بوجود الغبش الذي يكدّر صفاءها. وسأبيّن كذلك معاني "الجماعة" و"الأمة" في الإسلام؛ فإنّ التركيز الأكبر سيكون على مفهوم الهويّة الجماعيّ، لخطره وأهميته في هذه المرحلة التي تمر بها الأمة الإسلامية.

في الفصل الثاني: سوف أعرض لنماذج من الكتاب والسنة، تبرز فيها معاني الهوية الإسلامية، للتشبّع بمعانيها وتأكيدها وتأصيلها في قلوب المسلمين وعقولهم.

في الفصل الثالث: سوف أتحدّث عن الخلفية التاريخية لضعف الهوية الإسلامية كرابطة انتماء وولاء بين المسلمين في شتى أنحاء العالم، ودخول الهويات "القومية" و"الوطنية" كمحاور استقطاب تجمّعت حولها الشعوب المسلمة، مما أدّى إلى التفرّق المذموم الذي زاد الأمة وبالاً أكثر مما كانت عليه في عصورها المتأخرة.

في الفصل الرابع: سوف أعرض نقدًا موضوعيًّا وشرعيًّا للهوية "القومية"، وبيانًا لمدى زيفها وعدم صلاحيتها فضلاً عن مخالفتها لمعاني الولاء في الإسلام، وكيف أنها أخفقت في تحقيق النهضة للأمة الإسلامية.

في الفصل الخامس: سوف أعرض نقدا موضوعيًّا وشرعيًّا للهوية الوطنية، وبيانًا لتأثيرها السيّء على أحوال المسلمين منذ أنْ بُذرت بذورها النكدة في عقولهم وقلوبهم. وسأبيّن مخالفتها لمعاني الولاء في الإسلام، وأرفع الالتباس بين مفهوم "الوطنية" وفطرة "حبّ الوطن"، وبينها وبين مفهوم "الكيان السياسي" أو "الدولة" الذي تمّ الاصطلاح خطأً على تسميته "وطنا"! وسوف أبيّن خطأ المنهج التوفيقي في إضفاء الشرعيّة على المفاهيم الغربية المعاصرة ومنها الوطنية التي تخالف في أسسها الشرعيّات الإسلامية.

في الفصل السادس: سوف أعرض لبعض الشبهات التي تدور حول الهوية الوطنية وأفنّدها، باعتبارها الأكثر بروزًا في العقود الأخيرة، والأكثر تأثيرًا في واقع الأمة.

في الفصل السابع: سوف أبيّن تهافتَ شبهة "الطائفية" التي تأخذ حيّزا ضخمًا من خطاب العلمانيّين الابتزازيّ، بهدف هدم الهوية الإسلامية أو التأثير على الدعاة المسلمين لتمييعها وإهدار فاعليّتها.

في الفصل الثامن: سوف أتحدّث عن خصائص الهوية الإسلامية التي تميّزها عن غيرها من الهويات الزائفة كالقومية والوطنية.

في الفصل التاسع: سوف أتحدّث عن مقتضيات الهوية الإسلامية، وأنّها ليست معنى نظريّا مجرّدًا عن التأثير في واقع الفرد والجماعة.

في الفصل العاشر: والأخير سوف أتحدّث عن آثار ضعف الهويّة الإسلاميّة في الأمّة، وأبيّن المخاطر المعاصرة التي تهدّد هذه الهويّة، وأهمّية إحيائها في نفوس المسلمين؛ تجريدًا لمفهوم التوحيد، وسيرًا في طريق النجاة الأخرويّة، وأهمّيّتها كركن أصيل لنهضة هذه الأمة، لا تكون لها رفعة ولا عزّة ولا مجد ولا سؤدد دون إزالة الركام والغبش عن حقيقتها.

أسأل اللهَ الإخلاصَ في القول العمل، وأن يوفّقني في ما أرجوه من هذا الكتاب، وأسأله تعالى أن يهدينا إلى سواء السبيل.
اللهمّ أرنا الحقّ حقًّا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، ولا تجعله ملتبسًا علينا.
"إنْ أريدُ إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله عليك توكّلتُ وإليهِ أنيب"..

شريف محمّد جابر

2011 - 1432

الهويّة والشرعيّة

الهوية لغةً تُدور حول معنيَيْن في الغالب:

من "**الهَوى**" وهو: الميل أو العشق، وهَوِيَ فلانٌ فلانًا – هَوًى: أحبّه. فهو: هَوٍ. وهي: هَوِيّةٌ[1].

والمعنى الآخر من لفظ الضمير الغائب "**هُوَ**"، وقد ورد في حديث أمّ المؤمنين صفيّة بنت حييّ بن أخطب – رضي الله عنها – أنها قالت: "كنت أحب ولد أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر، لم ألقهما قط مع ولدهما إلا أخذاني دونه، فلما قدم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم المدينة ونزل قباء غدا عليه أبي وعمي مغلسين، فلم يرجعا حتى كان مع غروب الشمس، فأتيا كالّين ساقطين يمشيان الهوينى، فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إليّ واحد منهما مع ما بهما من الغم، وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي: "أهو هو؟" قال:"نعم والله"، قال عمي: "أتعرفه وتثبته؟" قال: "فما في نفسك؟" أجاب: "عداوته والله مابقيت"[2].

والمعنى الاصطلاحي هو حقيقة مركبّة من عموم المعنيين اللفظيين اللذين أوردناهما، فمن معنى "الهوى" يكتسب معنى "**الاستقطاب**"، فالهويّة هي الشيء الذي تهواه أفئدة الجماعة أو الأمة، أو هي ما يستقطبها. ومن معنى اللفظ "هُوَ" يكتسب معنى "**التميّز**" ومعنى "**المطابقة**"، فكما ورد في الحديث فإن السائل أبا ياسر يسأل: "أهو هو؟"، فيُفهم أنه أراد التأكد من مطابقة من رآه حييُّ بن أخطب لشخصية الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وكذلك يُفهم أنه سأله عمّا يميّز الرسول صلّى الله عليه وسلّم عن غيره إذ قال له: "أتعرفه وتثبته؟"، فما كان ليعرفه ويثبته لولا أنه يميّزه بصفات محددة عن غيره. وجاء في المعجم الوسيط عن معنى الهوية أنها: "**حقيقة الشيء أو الشخص التي تميّزه عن غيره**"[3].

وبناء على ذلك، وعلى استقراء معاني الهوية التي تدور حولها التعريفات الاصطلاحية فإن الهوية: **حقيقة ذاتية تشكّل محور استقطاب للأمة أو للفرد وتميّزهما عن غيرهما**.

والهوية الأصيلة هي التي تعبّر عن **الكيان الاختياري** للإنسان، وهي التي تنطوي على مضمون قيميّ مبدأيّ، فتجيب عن الأسئلة: من نحن؟ وماذا نريد؟ وكيف نحقّق ما نريد؟ وهذه الأوصاف للهوية الأصيلة لا تتحقق في الهويات المنتشرة بين أبناء الأمة الإسلامية إلا في هوية واحدة؛ هي الهوية الإسلامية. ذلك أنّها هي وحدها التي تعبّر عن الكيان الاختياري للإنسان (بينما الهويات القومية والوطنية تعبّر عن الكيان الجبري للإنسان: قومية، لغة، عرق، وطن)، وأنها هي وحدها التي تنطوي على مضمون قيميّ مبدأيّ ممّا سوف يأتي بيانه إن شاء الله.

والهوية الإسلامية لها بعدان: البعد الفردي، والبعد الجماعي.

---

1 المعجم الوسيط.

2 السيرة النبوية لابن هشام.

3 المعجم الوسيط.

والبعد الفردي يتضمّن تعريف الإنسان بذاته (الأنا الاختيارية)، وبأهدافه في الحياة، وبالمعايير التي تشكّل المرجع لديه وتضبط دوافعه.

والبعد الجماعي يعني الانتماء إلى "جماعة"، وهو يتضمّن تعريف الإنسان بذاته من حيث هو منتمٍ إلى جماعة (نحن الاختيارية).

والهوية الإسلامية في بُعدها **الفردي** تزوّد الفردَ بالإجابات الواضحة عن أسئلته حول هويّته الفردية: من هو؟ وما هي أهدافه؟ وما هو "المعيار" الذي يهواه فؤاده ويرجع إليه في أموره؟

فأمّا "المعيار" الذي يهواه فؤاده ويعرّفه بذاته وأهدافه فهو "الإسلام"، وتبيّنه الآية الكريمة: ﴿**قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرّنا ونُرَدُّ على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوتْهُ الشياطينُ في الأرض حيرانَ له أصحابٌ يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى وأُمِرْنا لنسلم لربّ العالمين**﴾ (**الأنعام: 71**).

وحين يعرّف المسلم ذاته فهو يقدّم نفسه بحقيقته الأسمى التي يعتز بها ويفخر: ﴿**ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين**﴾ (**فصّلت: 33**). فيقول: أنا مسلم، أو: إنّني من المسلمين. وهو تعريف بذاته "الاختيارية" التي يعتز بها، وأما قِوامه "الجبري" أو "الوراثي" الذي لم يكن له فيه أي اختيار كالتعريف "بالوطن" الذي ولد فيه، أو "بالقوم" الذين انتسب إليهم، فهو ليس تعريفا بالهوية، وإنما هو تعريف بالوطن الذي ولد فيه، أو هو تعريف بالقوم الذين انتسب إليهم فحسب. وسنبيّن – بإذن الله – مقدار التلبيس الذي يحدثه من يريد أن يُدخل "الوطنية" أو "القومية" في هوية المسلم.

وأما "الأهداف" التي يستقيها من هذا المعيار فالمسلم المتشبّع بفهمه وممارسته لدين الله عزّ وجلّ يعلمُ أن "العبادة" هي الغاية الكبرى لخلقه: **"وما خلقتُ الجن والإنسَ إلا ليعبدون**﴾ (**الذاريات: 56**). فيتحرّك في مجتمعه ليعمر الأرض بمقتضى المنهج الرباني، ويكون كل نشاط له وكل سلوك مسبوق بالسؤال: كيف يكون هذا النشاط أو ذلك السلوك عبادةً لله تعالى؟

بهذا المفهوم الإسلامي تتحقّق "الشرعية" في مفهوم الهوية عند المسلم، فتتّضح وتتبلور في عقله دون لبس أو كدر يشوب صفاءها.

والهوية الجماعية للأمّة الإسلاميّة هي: **الاجتماع على الإسلام والانتساب إلى الشرع**، وهي التي تتحقّق بها "شرعيّة التجمّع" في الإسلام، وغيرها من الهويات التي يتجمّع حولها الناس كالوطنية والقومية لا شرعية لها، وإنّما هي شرعيّة واحدة لا ثاني لها، وهذا هو موضوع بحثنا الذي يدور حوله الكتاب كله، والذي استفضنا في جلب الشواهد والأدلة عليه.

وتظهر الهوية الجماعية للأمّة بأبهى حلّة وأنقى صورة في هذه الآيات الكريمات التي نقدّمها ثم نشرع في بيان معاني الهوية التي تتضمّنها، مع بيان مفهوم "الولاء" وارتباط مفهوم الهوية به، وبيان مفاهيم "الجماعة" و"الأمة" في الإسلام:

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** *

وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * تِلْكَ آيَاتُ اللّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعَالَمِينَ * وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ * كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (آل عمران: **100 – 110**).

نبدأ بمناسبة الآيات، فقد ذكر الإمام البغوي في تفسيره **"معالم التنزيل"** قصة هذه الآيات فقال: "قال زيد بن أسلم: إن شاسَ بنَ قيسٍ اليهودي - وكان شيخاً عظيم الكفر شديد الطعن على المسلمين - مرَّ على نفر من الأوس والخزرج في مجلس جمعهم يتحدثون، فغاظه ما رأى من ألفتهم وصلاح ذات بينهم في الإسلام بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من العداوة، قال: قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد لا والله ما لنا معهم إذا اجتمعوا بها من قرار، فأمر شاباً من اليهود كان معه فقال: اعمد إليهم واجلس معهم ثم ذكّرهم يومَ بُعاثٍ وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار، وكان بُعاث يوماً اقتتلت فيه الأوس مع الخزرج، وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج، ففعل وتكلم فتكلم القوم عند ذلك فتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيّين على الرُّكب، أوسُ بن قبطي أحد بني حارثة من الأوس وجبار بن صخر أحد بني سلمة من الخزرج، فتقاولا ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم والله رددتها الآن جذعة، وغضب الفريقان جميعاً وقالا: قد فعلنا السلاحَ السلاحَ موعدكم الظاهرة، وهي حرة فخرجوا إليها، وانضمت الأوس والخزرج بعضها إلى بعض على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية، فبلغ ذلك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فخرج إليهم فمن معه من المهاجرين حتى جاءهم، فقال صلّى الله عليه وسلّم: يا معشر المسلمين **أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذْ أكرمكم الله بالإسلام، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، وألّف بينكم؟ ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً، الله الله!!** فعرف القوم أنها نزغةٌ من الشيطان وكيدٌ من عدوهم، فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا وعانق بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سامعين مطيعين، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية ﴿**يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ**﴾ قال جابر: فما رأيت قطّ يوماً أقبح أولاً، وأحسن آخراً من ذلك اليوم"[4].

واللافت في القصة أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم اعتبر عودة الأوس والخزرج إلى راياتهم وحميّتهم الجاهلية قبل الإسلام جاهليّةً وكفرا إذ قال: "**أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذْ أكرمكم الله بالإسلام، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، وألّف بينكم؟ ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً، الله الله!!**". فالموالاة والمعاداة على النسب والعصبيّة القبليّة جاهلية وكفر، ينقض أصل هذا الدين! فالأصل أن تكون الموالاة في الله، والمعاداة في الله، أي وفقا لرابطة الإيمان. ويؤكّد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿**قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ**

---

4 معالم التنزيل، للإمام البغوي.

تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (**الأنعام: 14**). فاتخاذ الوليّ من دون الله شركٌ، وإفراده بالولاء هو الإسلام، ويتّضح ذلك من ربط السياق القرآني قضية "**اتخاذ غير الله وليّا**" بقضية "**الإسلام لله وتحريم الشرك**"، فاتّخاذ غير الله وليّا – معه أو من دونه – ينافي الإسلام لله وحده، والموالاة والمعاداة في هذا الوليّ شركٌ مخرجٌ من الملّة، سواء كان هذا الوليّ صنما يُعبد أو كاهنا أو رابطة قوميّة يُوالى ويعادى عليها.

وارتباط مفهوم الهوية بمعاني الولاء[5] كما يبدو في هذه الآيات وأسباب نزولها وكما يبدو في آيات أخرى هو ارتباط عميق جدا؛ فقد ذكرنا أنّ من معاني الهوية أنها "محور استقطاب" يميّز الأمة عن غيرها، فإذا ما نازعه أو حلّ مكانه محور استقطاب آخر فإن هذا المحور الآخر يصبح ضمن هوية الأمة وحده أو بالاشتراك مع غيره، وهو بذلك يدخل في معاني الولاء؛ فالوليّ هو المحبّ والصديق والنصير. والولاء: المِلْكُ. ووالى الشيء: تابعَه. ووالى فلانا: أحبّه. ونصره. وحاباه. ("القاموس المحيط" و"المعجم الوسيط"، بتصرف). ونخلص من ذلك أن الولاء يتضمّن معاني المتابعة والمحبّة والنصرة، وهي من المعاني التي تدلّ عليها الهوية والانتماء بشكل أساسي، فالتماهي مع قوم والانتماء إليهم يعني محبّتهم ونصرتهم ومتابعتهم. فالموالاة والمعاداة تكون بناء على "محور استقطاب" معيّن، سواء كان هو العصبية القبلية أو القومية أو الوطنية أو غيرها. وهذا يظهر جليّا في قصة هذه الآيات، فهي تبيّن كيف أنّ تذكيرهم بيوم بُعاثٍ وإيقاظ العصبيّة القبليّة فيهم من قِبَل اليهودي جعل الولاء القبلي يشكّل محور استقطاب لهم، فتنازعوا وتفاخروا وانقسموا لفريقين كلّ ينتصر إلى فريقه على أساس ولائه القومي معه لا على أساس الرابطة الإيمانية، أي على أساس الهوية القومية لا الهوية الإسلامية. وهو ما يحدث اليوم حين يتفاخر أبناء كل قطر من أقطار المسلمين بالرابطة القومية أو الرابطة الوطنية، ويجعلونها محلّ "الولاء"، حتى يصل الأمر بأن تكون هي راية القتال، وتكون هي محور الاستقطاب للذين يسكنون في هذه الدولة أو تلك، أي تكون هي "الهوية". وكذلك ما يحدث فيما يسمّى "بالوحدة الوطنيّة"، حيث تشكّل هي محور الاستقطاب وتحديد الغايات في بلد من البلدان، مما يُنازع الهوية الإسلامية كمحور استقطاب، أو يصل ببعض الناس إلى نفيها واستبدال الهوية الوطنية بها، على أساس أن "الدين" مجرد علاقة بين العبد والرب محلّها القلب، أمّا علاقات الناس وعناصر التجمّع فلا تحكمها سوى الوحدة الوطنية!

ثمّ يستمرّ سياق الآيات الكريمات في بيان معاني الهوية الإسلامية: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾**. فكأنّه يذكّرهم بحقيقتهم؛ أنّهم "مسلمون".. مسلمون قبل أن يكونوا أوسًا أو خزرجًا: **﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾** (**الروم: 30**).

مسلمون بكيانهم الاختياري الذي يستند إلى رصيد عميق في الفطرة.. وما روابط الانتماء والتجمّع القبلية والقومية والوطنية تلك سوى عصبيّات وروابط ولاء تنافي كونهم "مسلمين".

---

5 الوليّ: المحبّ والصديق والنصير. والولاء: المِلْكُ. ووالى الشيء: تابعَه. ووالى فلانا: أحبّه. ونصره. وحاباه. (القاموس المحيط + المعجم الوسيط، بتصرف). ونخلص من ذلك أن الولاء يتضمّن معاني المتابعة والمحبّة والنصرة، وهي من المعاني التي تدل عليها الهوية والانتماء بشكل أساسي، فالتماهي مع قوم والانتماء إليهم يعني محبّتهم ونصرتهم ومتابعتهم.

ثم يستمر السياق، ويأمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين أن يعتصموا بحبل الله ولا يتفرّقوا، وأن يذكروا نعمة الله عليهم إذ كانوا أعداءً فألّف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخوانا: ﴿**وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾ (آل عمران: **103**).

الاعتصام: "يُقال: اعتصم به، واستعصم، وتمسّك، واستمسك، إذا امتنع به من غيره[6].

وحبل الله: "قال ابن مسعود: حبل الله القرآن. ورواه علي وأبو سعيد الخدري عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وعن مجاهد وقتادة مثل ذلك. وأبو معاوية عن الهجري عن أبي الأحوص عن عبد الله قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "إن هذا القرآن هو حبل الله"، وروى تَقيّ بن مخلّد حدّثنا يحي بن عبد الحميد حدّثنا هشيم عن العوّام بن حوشب عن الشعبي عن عبد الله بن مسعود ﴿**وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ**﴾ قال: الجماعة؛ روي عنه و(عن غيره) من وجوه، والمعنى كله متقارب مُتَدَاخِل؛ فإن الله تعالى يأمر بالألفة وينهى عن الفُرْقة فإن الفرقة هلكة والجماعة نجاة[7].

فالأصل ألا يشترك مع الاعتصام بالقرآن وبالإسلام أي معنى آخر، وألا يتفرّق المسلمون وتتنازعهم ولاءات شتى وروابط انتماء وتجمّع شتى غير الإسلام. يقول الشيخ عبد المجيد الشاذلي في كتابه "**البلاغ المبين**": "وعندما أوشك أن يحدث اقتتال بين الأوس والخزرج على ثارات ودعاوى الجاهلية أخبرهم أنه إذا انتهى وجود الجماعة المسلمة بالتفرق إلى الجماعات العرقية القديمة كان هذا التفرق المطلق كفرا كما أنّ الأحاديث أخبرت أنّ التشبه المطلق بالكفار كفر"[8].

ويقول الإمام القرطبي في معنى التفرّق: "قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَفَرَّقُواْ**﴾ (يعني في دينكم) كما ٱفترقت اليهود والنصارى في أديانهم؛ عن ٱبن مسعود وغيره. ويجوز أن يكون معناه ولا تفرقوا متابعين للهوى والأغراض المختلفة، وكونوا في دِين الله إخوانا؛ فيكون ذلك منعا لهم عن التقاطع والتدابر؛ ودل عليه ما بعده وهو قوله تعالى ﴿**وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً**﴾. وليس فيه دليل على تحريم الاختلاف في الفروع: فإن ذلك ليس ٱختلافا إذ الاختلاف ما يتعذر معه الائتلاف والجمع، وأما حكم مسائل الاجتهاد فإن الاختلاف فيها بسبب استخراج الفرائض ودقائق معاني الشرع؛ وما زالت الصحابة يختلفون في أحكام الحوادث، وهم مع ذلك متآلفون. وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "اختلاف أمّتي رحمة"[9] وإنما منع الله اختلافا هو سبب الفساد. روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم (قال)[10]: "**تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فِرقة أو ٱثنتين وسبعين فِرقة والنصارى مثل**

---

6 فتح القدير للإمام الشوكاني، في سياق تفسير الآيات.

7 الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي، في تفسير الآية.

8 البلاغ المبين للشيخ عبد المجيد بن يوسف الشاذلي.

9 ليس بحديث (موضوع)، أو ضعيف. (انظر: الألباني؛ ضعيف الجامع، والسيوطي؛ تدريب الراوي).

10 زيادة من عندنا.

ذلك وتفترق أمَّتي على ثلاث وسبعين فِرقة"[11].

ويحسن بنا أن نبيّن مفهوم "الجماعة" الشرعيّ في الإسلام، لبيان علاقة مفهوم الهوية الإسلامية به، فهُما شديدا الالتصاق ببعضهما، من حيث إنّ الجماعة الشرعية لا تتحقق دون الاجتماع على الإسلام، ودون الانتساب إلى الشرع، وهي من معاني الهوية الإسلامية الأساسية.

في الحديث: **"ليأتينّ على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل حتى إن كان منهم من أتى أمّه علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك. وإن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة، قال: من هي يا رسول الله ؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي﴾** (صحيح الترمذي: حسن).

وفي رواية أجابهم بقوله: **"هي الجماعة"** (أخرجه بن تيمية في مجموع الفتاوى: 171\24).

وفي الحديث: **"ستكون بعدي هنات وهنات، فمن رأيتموه فارق الجماعة، أو يريد أن يفرق أمر أمّة محمد كائنا من كان فاقتلوه؛ فإن يد الله مع الجماعة، وإن الشيطان مع من فارق الجماعة يركض"** (السيوطي، الجامع الصغير: صحيح).

ومفهوم **الجماعة** في الإسلام يدور حول معنيَيْن:

- **ما عليه الرسول صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه.**
- **وجماعة الإمامة** التي يقول فيها الإمام الشاطبي: "الجماعةُ راجعةٌ إلى الاجتماع على الإمام الموافِق للكتاب والسُّنة، فما كان خارجًا عن السُّنة – كالخوارج والروافض، وما جرَى مجراهم – فلا يدخُل في وصْف الجماعة"[12].

فالمعنى الأول يعني الالتزام بما كان عليه الرسول صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه، وقد كانوا لا يجتمعون إلا على رابطة الإسلام، ويدلّ على هذا المعنى نفس الآية: ﴿**واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرّقوا**﴾، فقد كان الأمر بالاعتصام على هيئة "الاجتماع"، وليس مجرد الاعتصام الفردي، ممّا يدلّ على أن الاجتماع على هوية أخرى غير الهوية الإسلامية خروج عن الشرعية التي كان عليها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فالتجمّع على روابط القبليّة (كما فعل الأوس والخزرج في الحادثة التي ذكرنا) والتجمّع على القومية والوطنية كروابط عُليا يجتمعُ عليها الناس وينتمون إليها (كما يفعل الناس اليوم) كلّ ذلك يتناقضُ مع المفهوم الشرعي للتجمّع، فضلا عن كونه يعني اتخاذ غير الله وليّا كما بيّنا سابقا.

وفي نفس الدلالة تخرج الكيانات والنظم التي تتجمّع على القوميّات والوطنيّات من الشرعية لاجتماعها على غير الإسلام؛ ذلك أنّها أوضاع افتراق تفرّق الأمة الإسلامية إلى ولاءات وانتماءات جاهلية كالنسب والعرق والوطن، ممّا يُضعفها ويطمس معاني وحدتها على رابطة الإيمان والتي أُمرتْ بها. وبهذا يكون قد تبيّن لنا علاقة مفهوم الهوية (باعتبارها محور استقطاب للأمة) بمفهوم الجماعة الشرعي، ويتبيّن لنا أنه لا شرعية لأوضاع الفرقة كالعصبية القبلية والقومية والوطنية التي تسود – مع الأسف – في بلاد المسلمين. بل ويتأكّد معنى النهي عن الافتراق في آية أخرى تأتي في السياق: ﴿**وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ**

---

11 الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي، في تفسير الآية.

12 كتاب الاعتصام للإمام الشاطبي.

وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. (آل عمران: **105**)

ثم يستمرّ السياق: **﴿وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾** (**آل عمران: 103**). فالله قد ألّف بين قلوبهم بهذا الدين، وأصبحوا إخوانا بالإسلام كذلك: **﴿إنّما المؤمنونَ إخوة﴾** (**الحجرات: 10**). فرابطة الأخوة الشرعية التي تقتضي المحبّة والموالاة هي رابطة الإيمان، وأمّا الروابط الأخرى فهي روابط مفرّقة وموقظة للعداوة بين المسلمين إن هم اتخذوها روابط أخوة وانتماء، مما يؤدي إلى ضعفهم وخفوت قوّتهم، فعلى الإيمان وحده تآلفت قلوبهم لا على الوطن ولا النسب ولا العرق ولا القوم، وتلك نعمة من الله أنعمها عليهم، وأنقذهم من النار بالإسلام له وحده.

وبقي أن نبيّن مفهوم "الأمة" كما هو ظاهر في سياق هذه الآيات من سورة آل عمران إذ يقول تعالى: **﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾** (**آل عمران: 104**) ويقول: **﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾** (**آل عمران: 110**).

والأمّة هنا بمعنى: الجماعة[13]، وهي: جماعة من الناس أكثرهم من أصل واحد، وتجمعهم صفات موروثة، ومصالح وأمانيّ واحدة، أو يجمعهم أمر واحد من دين أو مكان أو زمان[14].

وفي الآية الثانية يتّضح معنى الأمة الإسلامية الشرعيّ؛ بأنها **الجماعة من الناس التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله**، فهذا هو معيار خيريّتها، وتلك هي عناصر كونها أمة. فلا تجتمع على غير رابطة الإيمان ومفاهيم الإسلام، وأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر يتطلّب أن تتشكّل في تجمّع يحكمه نظام، يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله في تفسيره **"في ظلال القرآن"** في تفسير الآية رقم 104 من سورة آل عمران: "فلا بد من جماعة تدعو إلى الخير، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر. لا بد من سلطة في الأرض تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر. والذي يقرر أنه لا بد من سلطة هو مدلول النص القرآني ذاته. فهناك "دعوة" إلى الخير. ولكن هناك كذلك "أمر" بالمعروف. وهناك "نهي" عن المنكر. وإذا أمكن أن يقوم بالدعوة غير ذي سلطان، فإن "الأمر والنهي" لا يقوم بهما إلا ذو سلطان..

"هذا هو تصور الإسلام للمسألة.. إنه لا بد من سلطة تأمر وتنهى.. سلطة تقوم على الدعوة إلى الخير والنهي عن الشر.. سلطة تتجمع وحداتها وترتبط بحبل الله وحبل الأخوة في الله.. سلطة تقوم على هاتين الركيزتين مجتمعتين لتحقيق منهج الله في حياة البشر.. وتحقيق هذا المنهج يقتضي "دعوة" إلى الخير يعرف منها الناس حقيقة هذا المنهج. ويقتضي سلطة "تأمر" بالمعروف "وتنهى" عن المنكر.. فتطاع.. والله يقول: **﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله﴾**"[15].

---

13 لسان العرب لابن منظور.

14 المعجم الوسيط.

15 في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب، من تفسير سورة آل عمران.

فمفهوم "الأمة" في الإسلام هو: **الجماعة من البشر التي تصطبغ بمفاهيم الإسلام، وتحكمها شريعته، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر**. فمحور استقطاب هذه الجماعة هو "الإسلام"، ولا شيء غير الإسلام، وبذلك يكون الاجتماع على غيره من النظم كالعلمانية أو نظام المواطنة أو القومية أو الشيوعية أو غيرها إنما هو اجتماع على جاهليّات، يُفقد الأمة وجودها الشرعي، وإن بقي وجودها التاريخي بصورة أفراد مسلمين متفرقين، ولكن مهما كثر سوادهم ومهما حسن إسلامهم واتصفوا بالتقوى فإنهم لا يحقّقون وجود هذه الأمة **الشرعيّ** دون الالتزام بالمعايير الربّانية التي وضعها الله في كتابه، فالوجود الشرعي لهذه الأمة لا يتحقّق إلا بأن يكون لها نظام هويّته الإسلام وتحكمه شريعة الله، وإلا أن تقوم بواجبها الذي أخرجها الله من أجله: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**﴾ (**البقرة: 143**)، واجب دعوة البشرية جميعها إلى منهج الله، وليس مجرد الالتزام بأمر الله تعالى في ذات نفسها، فضلا عن أن يكون هذا الالتزام بصورة أفراد كلّ واحد منهم يمارس الإسلام كدين فرديّ! وكأنّه لا علاقة لهذا الدين بتنظيم المجتمع وتحديد أهداف الأمة وصبغها بالهوية الإسلامية لتشكّل محور الاستقطاب الوحيد لها!

وبذلك يكون سياق هذه الآيات قد أخرج لنا مفهوم الهوية الإسلامية بأبهى حلّة وأنقى صورة!

الهوية الإسلامية في الكتاب والسنّة

بالإضافة إلى ما ذكرناه في الفصل السابق من نصوص شرعيّة تبيّن معاني الهوية الإسلامية بشكل حاسم، فسوف نذكر في هذا الفصل بعض معاني الهويّة الإسلامية التي وردت في نصوص أخرى في كتاب الله وسنّة رسوله صلّى الله عليه وسلّم؛ تأكيدًا لها وتأصيلا في عقول المسلمين وقلوبهم. وقد اقتبسنا كثيرا من تفسير **"في ظلال القرآن"** للأستاذ سيّد قطب رحمه الله؛ لِما فيه من روعة في العرض، وما عند صاحبه من اهتمام بموضوع الهوية الإسلامية[16].

****

هناك صيغة من صيغ الخطاب القرآني المتوجّه للمسلمين كثيرة الانتشار في آيات كتاب الله سبحانه وتعالى، وهي قوله تعالى في مطالع آيات كثيرة: **"يا أيّها الذين آمنوا"**، وهي تتكرّر في كتاب الله أكثر من ثمانين مرة. واللافت في هذه الصيغة أنّ الخطاب الربّاني للمسلمين لم يتوجّه إليهم إلا بهوية جماعية واحدة محورها "الإيمان﴾ (يا أيّها الذين آمنوا)، فهو يخاطبهم بوصفهم الأمّة المؤمنة في الأرض، وليس بأوصافهم القومية ولا الوطنية! وهذه الصيغة المتكرّرة في الخطاب القرآني من آصلِ المعاني التي تؤكّد سطوع وهج الهوية الجماعية الإسلامية في كتاب الله تعالى. وحتّى حين خاطب الله سبحانه في كتابه "الناس" جميعا دون اختصاص المسلمين بالخطاب، فقد كان الخطاب موجّها إيّاهم إلى حقيقة واحدة هي أصل هذا الدين، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، والقارئ للآيات التي تبدأ بالمطلع **"يا أيّها الناس"** يلاحظ دوران معاني هذه الآيات حول هذه الحقيقة الكبرى؛ العبوديّة لله وحده دون شريك. والمعجز أنّ الآية الأولى التي وردت بهذه الصيغة في ترتيب المصحف كانت توجيها مباشرًا إلى هذه الحقيقة: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ (**البقرة: 21**). فمعاني الهويّة الإسلامية حاضرة بقوّة في الخطاب القرآني حتى في دلالة النصوص التي لا توجّه إلى هذه المعاني بشكل مباشر.

****

يقول تعالى في كتابه العزيز: ﴿**وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ**﴾ (**الحج: 78**).

والدّلالة هنا أن التسمية لها منزلة هامّة لدى المسلم، فالله سبحانه هو من سمّانا "المسلمين"، وهو أرفع اسم وأغلى وصف يمكن أن يحمله بشر! لا تلك المسمّيات والأوصاف التي لم ينزل الله بها من سلطان، والتي تكون على اعتبارات الجنس أو الأرض! والدلالة الأخرى أنّ الاعتصام يكون بالله، والله هو مولى المؤمنين، لا الوطن ولا القومية ينبغي أن تأخذ هذه المعاني في حسّ المسلم. بل نعتصم بالله عزّ وجلّ، وهو مولانا سبحانه، فنعم المولى.. ونعم النّصير!

---

16 يستخدم الأستاذ سيد قطب مصطلح "الجنسية" في نفس معنى الهوية الذي نطرحه في هذا البحث.

يقول تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ **(المؤمنون: 52)**.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: "وتتلاشى آماد الزمان، وأبعاد المكان، أمام وحدة الحقيقة التي جاء بها الرسل. ووحدة الطبيعة التي تميزهم. ووحدة الخالق الذي أرسلهم. ووحدة الاتجاه الذي يتجهونه أجمعين: **﴿وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون..﴾**"[17]. انتهى كلام صاحب الظلال.

تتجلّى وحدة الهويّة لهذه الأمة في هذه الآية أبهى تجلّ وأعذبه؛ فهي أمّة واحدة، تحمل أهدافا وغايات واحدة، وطموحات واحدة، ومنهجًا واحدًا، ومصيرًا واحدا. وهي وحدة تتعدّى حدود الزمان والمكان، وترتفع فوق عوامل الوحدة الأرضية والعرقيّة، وحدة تنبثق من هذا التقرير القرآني لخالقها سبحانه، وهل بعد تقرير الله سبحانه يكون لأيّ من البشر مكانٌ لتقرير؟!

أمّة واحدة لا ينبغي أن تنقسم على نفسها كما انقسمت في العهود الأخيرة، وأصبحت "أمما" شتّى، تتنازعها مصالح أرضية شتى، وأهواء شتى. أمّة واحدة تحدّد وجهتها التي أرادها الله لها، ثمّ تمضي في الطريق الواصل إلى الله.. بإذن الله.

****

تبرز الآياتُ التي تبيّن معاني الولاء في الإسلام بقوّة في كتاب الله تعالى، وقد بيّنا في الفصل السابق ارتباط معاني الهويّة الإسلامية بالولاء الذي هو ركن من أركان التوحيد. ونذكر بعض هذه الآيات تأكيدا لهذا المعنى:

يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ **(المائدة: 55)**. ولفظ "إنّما" يفيد الحصر، فبيّن أن الولاء لا يجوز أن ينصرف لغير الله ورسوله والمؤمنين، فلا يجوز أن يوالي المسلم قومه لمجرّد رابطة النسب والقوم، ولا أن يوالي المواطنين في بلده لمجرّد أنهم يقطنون في وطنه، وكونه لا يواليهم لا يعني أنّه لا يعاملهم بالبرّ، كما يقول تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ **(الممتحنة: 8)**. ولكنّ المعاملة بالبرّ شيء، واتخاذهم إخوانا وموالاتهم شيء آخر، فالله سبحانه لم يقل "لا ينهاكم أن تتخذوهم إخوانا"، ولكن أمرنا بالبرّ بهم والقسط إليهم، والبرّ بهم والقسط إليهم لا يقتضيان أيّ نوع من الأخوة أو الموالاة! وكذلك الأمر بالنسبة للمحبّة التي يريد بعض النّاس أن تقتضيها الأخوة الوطنية أو القومية المزعومة؛ فقد كان أمر الله واضحا في النهي عن موادّة من حادّ الله ورسوله حتى لو كان من قومنا بل من أهلنا: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ **(المجادلة: 22)**. ونهى سبحانه عن موالاتهم حتى لو كانوا آباءنا وإخواننا! يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ **(التوبة: 23)**. وقد نهى الله سبحانه عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين:

---

17 في ظلال القرآن، الأستاذ سيد قطب.

﴿لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (**آل عمران: 28**). ومن المعلوم أن الوطن والقوم يحويان أخلاطا شتّى؛ من الكفار والمؤمنين، فكيف يستقيم مع هذا البيان من العليّ الجليل قولُ من يقول بوجود ولاء قومي وولاء وطنيّ؟ ونهى الله سبحانه كذلك عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (**المائدة: 51**). فكيف يستقيم مع هذا البيان الواضح الجليّ قول من يقول بوجود الولاء الوطني والقومي، ومن المعلوم أنّه قد يكون في قوم المسلم ووطنه يهود أو نصارى؟!

فالأصل بهويّة المسلم أن تكون إسلامية خالصة فحسب، لا يوالي الناس على أساس قوميّاتهم ولا على أساس أوطانهم، ولا ينتمي إليهم على أساس هذه الاعتبارات الأرضية الجبرية، وإنّما يرتفع ليكون المعيار الربّاني هو المحور الذي تُبنى عليه هويّته الفرديّة والجماعيّة.

****

والقرآن الكريم يبيّن معيار تقويم الناس، وأنّه لا مساواة بين المؤمن والفاسق، فضلا عن أن تكون هناك مساواة بين المؤمن والكافر! يقول تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾ (**السجدة: 18**). ويقول تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (**القلم**: 35). ويقول تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ (**ص**: 28). إنّ المعيار في المساواة بين النّاس والمفاضلة بينهم ليس هو كون هؤلاء الناس من قومنا أو من وطننا، ليس هو "الأخوة القومية" أو "الأخوة الوطنية" المزعومة! وإنّما المعيار – كما هو واضح في محكم الآيات – معيارُ "الدين".

****

يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (**الأنبياء: 10**).

يقول صاحب الظلال في معرض تفسيره لهذه الآية: "ولقد كان به ذكر العرب ومجدهم حين حملوا رسالته فشرقوا بها وغربوا. فلم يكن لهم قبله ذكر، ولم يكن معهم ما يعطونه للبشرية فتعرفه لهم وتذكرهم به. ولقد ظلت البشرية تذكرهم وترفعهم طالما استمسكوا بهذا الكتاب، وقادوا به البشرية قروناً طويلة، فسعدوا وسعدت بما معهم من ذلك الكتاب. حتى إذا تخلوا عنه تخلت عنهم البشرية، وانحط فيها ذكرهم، وصاروا ذيلاً للقافلة يتخطفهم الناس، وكانوا بكتابهم يتخطف الناس من حولهم وهم آمنون!

وما يملك العرب من زاد يقدّمونه للبشرية سوى هذا الزاد. وما يملكون من فكرة يقدّمونها للإنسانية سوى هذه الفكرة. فإن تقدّموا للبشرية بكتابهم ذاك عرفتهم وذكرتهم ورفعتهم، لأنها تجد عندهم ما تنتفع به. فأما إذا تقدّموا إليها عرباً فحسب بجنسية العرب. فما هم؟ وما ذاك؟ وما قيمة هذا النسب بغير هذا الكتاب؟ إنّ البشرية لم تعرفهم إلا بكتابهم وعقيدتهم وسلوكهم المستمدّ من ذلك الكتاب وهذه العقيدة.

لم تعرفهم لأنهم عرب فحسب. فذلك لا يساوي شيئاً في تاريخ البشرية، ولا مدلول له في معجم الحضارة! إنما عرفتهم لأنهم يحملون حضارة الإسلام ومثله وفكرته. وهذا أمر له مدلول في تاريخ البشرية ومعجم الحضارة!"[18].

****

يقول تعالى: ﴿**وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ**﴾ (**هود: 46**).

يقول صاحب الظلال في معرض تفسير هذه الآيات: "والآن وقد هدأت العاصفة، وسكن الهول، واستوت على الجودي. الآن تستيقظ في نفس نوح لهفة الوالد المفجوع: ﴿**ونادى نوح ربّه، فقال: ربّ إنّ ابني من أهلي، وإنّ وعدك الحق، وأنت أحكم الحاكمين**﴾.

ربّ إنّ ابني من أهلي، وإنّ وعدك الحق، وأنت أحكم الحاكمين. فلا تقضي إلا عن حكمة وتدبير..

قالها يستنجز ربّه وعده في نجاة أهله، ويستنجزه حكمته في الوعد والقضاء..

وجاءه الرّد بالحقيقة التي غفل عنها. فالأهل - عند الله وفي دينه وميزانه - ليسوا قرابة الدم، إنما هم قرابة العقيدة. وهذا الولد لم يكن مؤمناً، فليس إذن من أهله وهو النبي المؤمن.. جاءه الرد هكذا في قوة وتقرير وتوكيد؛ وفيما يشبه التقريع والتأنيب والتهديد: قال: ﴿**يا نوح إنّه ليس من أهلك، إنّه عمل غير صالح، فلا تَسْأَلْنِ ما ليس لك به علم. إني أعظك أن تكون من الجاهلين..**﴾.

إنها الحقيقة الكبيرة في هذا الدين. حقيقة العروة التي ترجع إليها الخيوط جميعاً. عروة العقيدة التي تربط بين الفرد والفرد ما لا يربطه النسب والقرابة: ﴿**إنّه ليس من أهلك. إنّه عمل غير صالح..**﴾ فهو مُنبتٌّ منك وأنت مُنبتٌّ منه، ولو كان ابنك من صلبك، فالعروة الأولى مقطوعة، فلا رابطة بعد ذلك ولا وشيجة"[19].

****

يقول تعالى في قصّة سيّدنا موسى عليه السلام: ﴿**قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ**﴾ (**المائدة: 25**).

يقول صاحب الظلال في معرض تفسيره لهذه الآية: "..فما يربطه بهم شيء بعد النكول عن ميثاق الله الوثيق.. ما يربطه بهم نسب. وما يربطه بهم تاريخ. وما يربطه بهم جهد سابق. إنما تربطه بهم هذه الدعوة إلى الله، وهذا الميثاق مع الله. وقد فصلوه. فانبتّ ما بينه وبينهم إلى الأعماق. وما عاد يربطه بهم رباط.. إنّه مستقيم على عهد الله وهم فاسقون.. إنّه مستمسك بميثاق الله وهم ناكصون..

هذا هو أدب النبي. وهذه هي خطة المؤمن. وهذه هي الآصرة التي يجتمع عليها أو يتفرق المؤمنون.. لا جنس. لا نسب. لا قوم. لا لغة. لا تاريخ. لا وشيجة من كل وشائج الأرض؛ إذا انقطعت وشيجة العقيدة؛ وإذا اختلف المنهج

---

18 في ظلال القرآن، الأستاذ سيد قطب.

19 في ظلال القرآن، الأستاذ سيد قطب.

والطريق.."[20].

****

يقول تعالى: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (**آل عمران: 139**). ويقول تعالى: ﴿**يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ**﴾ (**المنافقون: 8**).

والدلالة أنّ الاستعلاء والاعتزاز إنّما يكون بالإيمان لا بأيّ شيء سواه من جنس ونسب ووطن. فمهما اعتزّ المسلمون اليوم بهذه الأوثان المعاصرة فإنّهم لا محالة واقعون في المهانة والاستضعاف، كما قال سيّدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "**إنّا كنّا أذلّ قوم فأعزّنا الله بالإسلام، فمهما طلبنا العزّ بغير ما أعزّنا الله أذلّنا الله**". فإلى متى تظلّ هذه الأعداد الغفيرة من الأمّة ماضية في مخالفة أمر الله معتزّةً بالقوميّات والوطنيّات المعاصرة؟ فيعتزّ الفلسطينيّ بفلسطينيّته، والمصريّ بمصريّته، والسوريّ بسوريّته، والعراقيّ بعراقيّته، والسعوديّ بسعوديّته، والمغربيّ بمغربيّته.. إلخ. وكلّ هذه جاهليات، وكلّها مخالفٌ لأمر الله، وكلّها عوامل على التأخّر والمذلّة والاستضعاف!

****

يقول تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ (**الحجرات: 13**).

يقول صاحب الظلال: " يا أيها الناس. يا أيها المختلفون أجناساً وألواناً، المتفرقون شعوباً وقبائل. إنكم من أصل واحد. فلا تختلفوا ولا تتفرقوا ولا تتخاصموا ولا تذهبوا بدداً.

يا أيها الناس. والذي يناديكم هذا النداء هو الذي خلقكم.. من ذكر وأنثى.. وهو يطلعكم على الغاية من جعلكم شعوباً وقبائل. إنها ليست التناحر والخصام. إنما هي التعارف والوئام. فأما اختلاف الألسنة والألوان، واختلاف الطباع والأخلاق، واختلاف المواهب والاستعدادات، فتنوع لا يقتضي النزاع والشقاق، بل يقتضي التعاون للنهوض بجميع التكاليف والوفاء بجميع الحاجات. وليس للون والجنس واللغة والوطن وسائر هذه المعاني من حساب في ميزان الله. إنما هنالك ميزان واحد تتحدد به القيم، ويعرف به فضل الناس: ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾.. والكريم حقاً هو الكريم عند الله. وهو يزنكم عن علم وعن خبرة بالقيم والموازين: ﴿**إن الله عليم خبير**﴾..

وهكذا تسقط جميع الفوارق، وتسقط جميع القيم، ويرتفع ميزان واحد بقيمة واحدة، وإلى هذا الميزان يتحاكم البشر، وإلى هذه القيمة يرجع اختلاف البشر في الميزان.

وهكذا تتوارى جميع أسباب النزاع والخصومات في الأرض؛ وترخص جميع القيم التي يتكالب عليها الناس. ويظهر سبب

---

20 في ظلال القرآن، الأستاذ سيد قطب.

ضخم واضح للألفة والتعاون: ألوهية الله للجميع، وخلقهم من أصل واحد. كما يرتفع لواء واحد يتسابق الجميع ليقفوا تحته: لواء التقوى في ظل الله.

وهذا هو اللواء الذي رفعه الإسلام لينقذ البشرية من عقابيل العصبية للجنس، والعصبية للأرض، والعصبية للقبيلة، والعصبية للبيت. وكلها من الجاهلية وإليها، تتزيا بشتى الأزياء، وتسمى بشتى الأسماء. وكلها جاهلية عارية من الإسلام!

وقد حارب الإسلام هذه العصبية الجاهلية في كل صورها وأشكالها، ليقيم نظامه الإنساني العالمي في ظل راية واحدة: راية الله.. لا راية الوطنية. ولا راية القومية. ولا راية البيت. ولا راية الجنس. فكلها رايات زائفة لا يعرفها الإسلام.

قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم: **"كلكم بنو آدم، وآدم خلق من تراب. ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم، أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان"**.

وقال – صلى الله عليه وسلم – عن العصبية الجاهلية: **"دعوها فإنها منتنة"**.

وهذه هي القاعدة التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي. المجتمع الإنساني العالمي، الذي تحاول البشرية في خيالها المحلق أن تحقق لوناً من ألوانه فتخفق، لأنها لا تسلك إليه الطريق الواحد الواصل المستقيم.. الطريق إلى الله.. ولأنها لا تقف تحت الراية الواحدة المجمعة.. راية الله.."[21].

****

يقول تعالى: **﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾** **(البقرة: 84)**.

يقول الإمام الطبري في تفسيره **"جامع البيان"**، وفي إشارة رائعة لأصالة الهوية الإسلامية وتأثيرها الفاعل بين المسلمين: "فإن قال قائل: وما معنى قوله: **﴿لا تَسْفِكونَ دِماءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أنْفُسَكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ﴾**؟ وقال: أَوَ كان القوم يقتلون أنفسهم، ويخرجونها من ديارها، فنهوا عن ذلك؟ قيل: ليس الأمر في ذلك على ما ظننتَ، ولكنهم نهوا عن أن يقتل بعضهم بعضا، فكان في قتل الرجل منهم الرجلَ قتلُ نفسه، إذْ كانت مِلَّتُهما بمنزلة رجل واحد، كما قال عليه الصلاة والسلام: **﴿إنَّمَا المُؤْمِنونَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ بَيْنَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الجَسَدِ الوَاحِدِ إذَا اشْتَكَى بَعْضُهُ تَدَاعَى لَهُ سائرُ الجَسَدِ بِالحُمّى وَالسَّهَرِ﴾**[22].

وما أعظم دلالة الآية! وما أعظم دلالة الحديث! إنّها الرابطة الواحدة في الله، هي التي تجعل شعور المسلم بأخيه المسلم وكأنّه نفسه التي بين جنبيه، بل كذلك ينبغي فعلا! كم يكون الواحد منّا حريصًا على نفسه وحمايتها من الأذى، وإرضائها بتلبية متطلّباتها؟ هكذا ينبغي أن يكون حرصه على أخيه المسلم. فهل ثمّة رابطة من الروابط الجبرية كالقومية والوطنية تفعل

---

21 في ظلال القرآن، الأستاذ سيد قطب.

22 جامع البيان للطبري، والحديث حديث صحيح بألفاظ أخرى، وهو في البخاري برواية النعمان بن بشير: "ترى المؤمنين في تراحمهم، وتوادهم، وتعاطفهم، كمثل الجسد، إذا اشتكى عضوا، تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى".

هذا الفعل الإنسانيّ في نفس البشر؟! كلاّ! إنّ الجسد الواحد لا تؤلّفه إلا العناصر المؤمنة مهما كانت أوطانها وجنسيّاتها وقوميّاتها وأعراقها، وإنّ النسيج الواحد لا يلتئم إلا بخيوط النور.. نور الإيمان، فالإيمان هو ذلك النور الذي يسري في القلوب فيحرّكها لتسلم لله وحده، فتوالي فيه، وتحبّ وتبغض فيه، وتجتمع تحت رايته لا تحت الرايات العميّة الجاهليّة.

****

يقول تعالى: ﴿**وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ**﴾ (**البقرة: 250**).

فإلى أيّ فئة في ذلك التاريخ الغابر ينتمي المسلم الفلسطينيّ؟ إلى "الفلسطينيّين" الكفار من قوم جالوت أم إلى الفئة المؤمنة من "بني إسرائيل"؟ هل تقف المسمّيات العرقية والوطنية والقومية أمام انتمائه الواضح لكل من اختار العبودية لله وحده، بغضّ النظر عن نسبه وعرقه ووطنه؟! وهل يجمعه مع قوم جالوت شيء من الروابط الموهومة سوى أن يكون هو رابطة "الوطن" الواحد؟

إنّ دعاة الوطنيّة المعاصرين يلجأون إلى هذه الأحداث التاريخية حتى يبرهنوا على أصالة الوجود "الفلسطيني" في بلاد فلسطين وأحقّيّته! وعلى أنّ اليهود اغتصبوا قبل آلاف السنين أرض فلسطين من "الفلسطينيّين"! وما دروا أنّ من يدعونهم بالفلسطينيّين اليوم معظمهم (بل ربّما كلّهم) لا يمتّ بصلة إلى قوم جالوت الفلسطينيّين الذين تشابه اسمهم معهم! ولكنّها الأهواء تغربل التاريخ وتنبشه حتى تنتزع منه – ابتذالاً – ما يؤصّل للدعوة الوطنيّة حتى لو كان زائفًا!

يقول أحد الباحثين واسمه ثامر مراد في مقال له على موقع "دنيا الرأي" تحت عنوان **"جالوت الفلسطيني في جامعة الأزهر بغزة"**: "في بحث يعد الأول من نوعه في دراسات التراث الشعبي، يتوصل الدكتور محمد بكر البوجي مؤلف كتاب (التراث الشعبي والمواجهة) إلى نتيجه مؤداها أن الإسرائيليين قد سرقوا التراث الشعبي الفلسطيني قبل ثلاثة آلاف سنة حينما كان الفلسطينيون في هذه البلاد وقد غزى بنو اسرائيل أرض الفلسطينين على ساحل شرق المتوسط وكان شعار السداسية خاصا بالقائد العسكري الفلسطيني جالوت، حيث كانت يرسم على درعه الشكل السداسي، ويبدو أنه كان وثنيا متصلا بالمعتقدات الفرعونيه التي تقدس الشمس فالعلامات الستة هي شعاع الشمس تنطلق من دائرة واحدة هي الشمس، كذلك سرق الاسرائيليون وحدة الوزن الفلسطينية (الشقلة) وحولوها إلى شيقل، ثم اتخذوها في العام 1975م عملة لهم، هذا مع العلم أن وحدة الوزن لبني اسرائيل كانت المثقال قبل دخولهم أرض فلسطين وهذا وارد في كتاب العهد القديم كما يشير الباحث، كذلك أشار الكتاب إلى سرقات اليهود للتراث الفلسطيني مع بداية القرن العشرين من خلال إرسال بعثات علمية أوروبية بتمويل من صندوق المال الصهيوني لدراسة التراث الشعبي الفلسطيني وقد أورد الكتاب أسماء معظم المستشرقين الذين ذهبوا إلى فلسطين، وأسماء الدراسات التي قاموا بها وأهدافهم منها، وملخصة في أن الباحثين المستشرقين يرجعون عادات وتقاليد أهل فلسطين إلى عادات وتقاليد بني اسرائيل كما هي موجودة في التوراة، وهي محاولة صهيونيه يائسة ومكشوفة لربط الانسان اليهودي بأرض فلسطين والايحاء بأن الفلسطيني لا علاقة له بهذه الأرض رغم وجوده قبل دخول بني إسرائيل

بألفي عام تقريبا"[23].

وهكذا يعبث هذا الكاتب بحقائق التاريخ التي تقول إنّ فلسطينيّي اليوم لا علاقة لهم دينيا أو ثقافيا أو قوميّا بالفلسطينيّين الذين كانوا في تلك الحقبة من التاريخ، والذين كانوا "وثنيّين" كفارًا وكان جالوت منهم! ويغفل (أو يتغافل) عن أنّه بتقريره هذا يريد للمسلم الفلسطينيّ أن يشعر بالانتماء تجاه أقوام من الكفار في التاريخ الغابر، ويشعر بالنقمة تجاه فئة مؤمنة كان نبيّ الله داود منها! لمجرّد أنّ أولئك "فلسطينيّون" وهؤلاء من "بني إسرائيل"؛ فيجعل معيار الانتماء والمفاضلة هو معيار "الوطن"، و"القومية" (وإن كانت وهميّة مكذوبة كما تقدّم!) ويعليها على معيار "الإيمان"! غير مدرك أنّ الدعوة الإسلامية اليوم ما هي إلا امتداد لقافلة مباركة ابتدأت بسيّدنا آدم مرورا بأنبياء الله عليهم السلام – ومنهم سيّدنا داود عليه السلام وعصبة طالوت المؤمنة التي حاربت جالوت الفلسطينيّ! – وصولا إلى سيّد ولد آدم رسولنا الكريم محمّد صلّى الله عليه وسلّم. فهي مسيرة واحدة، وقافلة واحدة، وانتماء واحد، وهويّة واحدة، أساسها الإيمان والدعوة إلى تعبيد الخلق لربّهم الواحد.

هذا نموذج من تزييف الحقائق يعمد إليه دعاة الوطنية الفلسطينيّة، مخالفين بذلك ما تقرّره النصوص القرآنية المحكمة، بغية تشكيل هويّة جماعية "فلسطينيّة" تستند إلى "تراث" شعبيّ وإن كان وجوده موهومًا! وإلى "تاريخ" مشترك وإن كان الاستناد إليه مغلوطًا!

****

جاء في الحديث: "...**ومن دعا دعوى الجاهلية فهو جثاء جهنّم، قال رجل: يا رسول الله وإن صام وصلّى؟ قال: وإن صام وصلّى، ولكن تسمّوا باسم الله الذي سمّاكم المسلمين المؤمنين**"[24].

ودلالة الحديث لا تكاد تحتاج إلى مزيد بيان! فدعاوى الجاهلية كلّها باطلة، كتلك التي نهى عنها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الأوسَ والخزرجَ حين بثّها فيهم ذلك اليهوديّ الخبيث شاس في المدينة، فتفاخرت كلّ قبيلة وتنادت بدعاويها الجاهلية قبل الإسلام، وقد ذكرناها في الفصل الأوّل. أو كتلك التي يتنادى بها الناس اليوم كالقوميّة والوطنية، فيفخر العربيّ بعروبته ويجعلها رابطة تجمّع وهويّة وانتماءً، ويفخر كل مواطن بوطنيّته جاعلا منها رابطة تجمّع وهويّة وانتماءً! فهذه كلّها جاهليّات جاء الإسلام ليمحوها مع غيرها من أشكال الجاهلية الأخرى.

وحين يقول لنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "**تسمّوا باسم الله الذي سمّاكم المسلمين المؤمنين**" يكون وصف "المسلم" هو الذي نعرّف به أنفسنا، ويكون هو هويّتنا، لا الوطن ولا القوم. فوطننا قد يكون هو فلسطين، وقومنا الذين ننتسب إليهم هم العرب، ولكن لا تكون تلك الأوصاف هويّتنا بأيّ شكل من الأشكال، لأنّ الهويّة – كما مرّ معنا – محور استقطاب قِيَمِيّ للفرد والجماعة، ولا شيء يأخذ هذا الوصف في حياة المسلم سوى الإسلام، فنحن إذن مسلمون، وهويّتنا إسلامية.

وجاء في الحديث كذلك: "**ليس منّا من دعا إلى عصبية، وليس منّا من قاتل على عصبية، وليس منّا من مات على**

---

23 جالوت الفلسطيني في جامعة الأزهر بغزة، للكاتب ثامر مراد، مقال منشور على موقع "دنيا الرأي" بتاريخ: 28.8.2010.

24 الراوي: أبو مالك الأشعري المحدث :الهيثمي -_المصدر :مجمع الزوائد - الصفحة أو الرقم 5/220 :خلاصة حكم المحدث :رجاله ثقات رجال الصحيح خلا علي بن إسحاق السلمي وهو ثقة

عصبية"[25].

****

جاء في الحديث: **"ليس لأحد على أحد فضل إلا بالدين أو عمل صالح"**[26].

فلا مفاضلة بين الناس على أساس الوطن والقوميّات، وإنما هو معيار واضح لا لبس فيه، حدّده رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؛ هو معيار "الدين" أو "العمل الصالح". والعمل الصالح لا يقبل إلا بشرطين وهما: أن يكون خالصًا لله، وأن يكون صوابًا كما شرع الله. فهو بذلك لا يقبل إلا من المسلم، الذي حقّق عبوديّة الله وحده. فبين المسلمين تكون المفاضلة بالأعمال الصالحة، وبين المسلمين وغيرهم تكون المفاضلة على أساس "الدين" مطلقًا؛ فالمسلم الذي يعبد الله وحده دون شريك أفضل عندنا من الكافر الذي أعرض عن عباده الله وأعرض عن الإسلام له، حتّى لو كان الكافر من وطننا وقوميّتنا وكان المسلم غير عربيّ ومن وطن بعيد.

****

وجاء في صحيح البخاري من رواية أبي موسى الأشعري: **"المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضًا. وشبك بين أصابعه"**. وجاء في صحيح مسلم من رواية النعمان بن بشير: **"المسلمون كرجل واحد. إن اشتكى عينه، اشتكى كلّه. وإن اشتكى رأسه، اشتكى كلّه"**.

ولم يقل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم "العربيّ للعربيّ كالبنيان" ولم يقل "الفلسطينيّ للفلسطينيّ كالبنيان"، ولم يقل كذلك "العرب كرجل واحد" ولم يقل "الفلسطينيّون كرجل واحد". لم يكن لاعتبارات النسب والوطن أيّ معنى من معاني الوحدة والانتماء والهويّة الواحدة. وإنّما ينتمي المسلم إلى الجسد المسلم مهما كانت أوطانه وقوميّاته، ويكون مع إخوانه المسلمين **"كالبنيان يشدّ بعضه بعضًا"**، أو **"كرجل واحد. إن اشتكى عينه، اشتكى كلّه. وإن اشتكى رأسه، اشتكى كلّه"**. فهم جسد واحد، ولحمة واحدة، تجمعها رابطة العقيدة، يحزن بعضهم لآلام بعض، فيحسّ أنّها آلامه هو، تحقيقا لا تلفيقًا، ويفرح بعضهم لأفراح بعض، فيحسّ أنها أفراحه هو. ويهتمّ لأمرهم في السرّاء والضرّاء أينما كانوا ولأيّ القوميّات انتسبوا، ينصرهم ولا يخذلهم، ويسعى لرفعتهم وعزّهم ومجدهم، طالما كانت الرابطة التي تجمعه معهم هي رابطة العقيدة في الله.. أغلى رابطة في الوجود.

****

ونختم هذا الفصل بحديث رواه ثوبان مولى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: **"يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. فقال قائل: ومن قلّة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعنّ الله من صدور عدوّكم المهابة منكم، وليقذفنّ الله في قلوبكم الوهن. فقال قائل: يا رسول الله! وما**

---

25 رواه أبو داود في سننه برواية جبير بن مطعم، وسكت عنه، وقد قال في رسالته لأهل مكة كل ما سكت عنه فهو صالح.

26 السيوطي، الجامع الصغير، حديث صحيح.

الوهن؟ قال: حبّ الدنيا وكراهية الموت"[27].

لقد حدّث الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – صحابته الكرام مستشرفا المستقبل البعيد، حدّثهم بضمير "المخاطَب" فقال لهم: "**توشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها**". لقد تجاوز معنى الولاء في هذا الحديث حدود الزمان والمكان والآباد.. ومزج قلوب الصحابة بقلوبنا نحن ممّن يعيش في هذه الغربة الثانية للإسلام وفي هذا الوهن، وهل غيرنا تداعت عليه الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها؟!

لقد تمازج هذا المعنى ليقول لنا إننا أمّة واحدة، وإنّ امتداد هذه الأمّة يعود إلى ذلك الرهط الكريم من الصحابة الكرام. إنّه انتماء عميق عريق يتجاوز حدود الأزمان والآباد.

واليوم ما بالنا نحن؟ ما بالنا لا يتجاوز معنى الولاء والانتماء عندنا الحدود الاصطناعية التي وضعها لنا أعداؤنا؟! أفلا نتجاوز هذه الانتكاسة فنعود أمّة واحدة، ذات هويّة وحدة، وانتماء واحد؟ أفلا نعود كما أراد الله لنا أمّة واحدة متماسكة بدلا من التفرّق المذموم الذي يتزيّا بأزياء الوطنيّة والقوميّة؟

بلى.. إنّا عائدون بإذن الله..

ولنا أن نتساءل الآن: كيف انحرفت الأمة الإسلامية عن هذه الصورة الناصعة للهوية الإسلامية؟ وكيف وصلت إلى هذا الحضيض الذي تتنازعها فيه هويات دخيلة شتى؟

---

27 صحيح أبو داود، حديث صحيح.

الخلفيّة التاريخيّة لانحراف مفهوم الهويّة

حديثنا في هذا الفصل يدور حول محورين أساسيّين:

– **المحور الأول**: العوامل الداخلية التي أدّت إلى ضعف الهوية الإسلامية بين أبناء الأمة.

– **المحور الثاني**: العوامل الخارجية التي أدّت إلى انحراف مفهوم الهوية والتباسه بغيره من المفاهيم الدخيلة.

* **العوامل الداخلية**:

حينما أقام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم دولة الإسلام في المدينة المنوّرة كان حريصا أشدّ الحرص على إشراك الأمة الإسلامية في الشؤون والسياسات العامة واتخاذ القرارات، فكان نظامه – عليه الصلاة والسلام – نظام "مشاركة" إن صحّ التعبير، نظامًا تلتحم فيه شرائح الأمة بمختلف مستوياتها مع الحاكم وأجهزة الحكم لتشارك في صنع القرار وإدارة الشؤون السياسية والاقتصادية والاجتماعية، واستمر هذا الوضع الشرعي في الخلافة الراشدة.

وكانت المشاركة تتحقّق في تلك العهود المنيرة عن طريق الشورى الملزمة لأهل الحل والعقد ولأهل النظر والاجتهاد. وكانت الأطر المختلفة في الدولة الإسلامية تندمج في الشأن العام للأمة، والسيرة مليئة بالحوادث التي تبرز لنا طبيعة المشاركة ودورها في إحداث التلاحم بين الحاكم والأمة، وكذلك الأمر سِيَرُ الخلفاء الراشدين[28].

فالأصل أن تتحقَّق مشاركةُ الأمَّة في النِّظام الإسلامي عن طريقِ الشورى الملزِمة لأهلِ الحَلِّ والعَقد، ويكون دورهم تحقيقَ مصالح الأمَّة بمختلف الطُّرق؛ سواء كان ذلك بممارساتِ الحِسبة أو الشورى أو العَزل، أو غيرها مما يُحقِّق مصالح الأمَّة، ويَضمن حقوقَها في إقامةِ شَرْع الله والعدْل مِن قِبل الحاكم، وتتحقَّق كذلك عن طريقِ الشورى الملزِمة لأهل النَّظر والاجتهاد فيما ليس فيه نصٌّ ولا إجماع. ولكن هذا الأصل الذي تحقق في دولة الرسول صلّى الله عليه وسلّم وفي الخلافة الراشدة بمستوى رائع لا مثيل له في التاريخ لم يكن ليستمرّ طويلا على هذا المستوى الرائع، بل انحسرت مشاركة الأمة في الحكم في عهد الملك العضوض بعد الخلافة الراشدة، وكانت أهمّ أسباب انحسار هذه المشاركة بفاعليّتها الشرعية هي:

– **الاستبداد**: الذي صبغ بدرجات متفاوتة هذه العهود من الحكم الإسلامي من قبل بعض الحكام والولاة، ولئن كان الأمر غير عام على كل تلك العهود كما يروّج المستشرقون والعلمانيّون حتى يقولوا إن الحكم الإسلامي كان ظالما كله وينبغي إذن نبذ فكرة إعادته وتطبيقه[29]! ولكن المقدار الذي حدث منه كان كافيا في زحزحة قضية مشاركة الأمة عن وضعها

---

28 لقراءة بعض الأمثلة من السيرة راجع كتاب "الطريق إلى الجنة" فصل "الإسلام: هوية تجمع الأمة" لفضيلة الشيخ عبد المجيد الشاذلي.

29 يغفل العلمانيون أو يتغافلون أن الحكم الإسلامي في عهوده الأموية والعباسية والمملوكية والعثمانية كان أكثر عدلا بدرجات كبيرة من عهود الحكم العلماني التي لا زالت تظلل الكثير من بلدان العالم الإسلامي ولا زالت جرائمها الوحشية تنضح على مرأى من العالم ومسمع! ومتغافلين في الوقت ذاته أنها كانت نظما تنتمي إلى هوية الأمة الإسلامية، وليست منبتة الصلة عنها كما هو الحال في الأنظمة العلمانية! ومتغافلين ثالثا عن العزة والكرامة والقوة والريادة التي سادت تلك العهود على ما فيها، في مقابل التخلف والتبعية والذل والضعف المهين الذي ساد ولازال في عهود الحكم العلماني!

الشرعي الطبيعي.

– **التوريث**: والذي كان انحرافا ولا شك عن المنهج النبوي والراشدي في طريقة اختيار الإمام، وعدم تفعيل الشورى لاختيار الإمام من قبل أهل الحل والعقد في الدولة الإسلامية يُفضي إلى شيء من انحسار فاعلية الهوية الجماعية للأمة، بعد انحسار هذا الجانب الهام من المشاركة. حتى لو كان التوريث يأتي بأحسن الخلفاء (كإتيانه بعمر بن عبد العزيز رحمه الله) ولكنه من حيث الأصل انحراف عن المنهج الشرعي في اختيار الخليفة.

وأدت هذه العوامل من الاستبداد وتوريث الحكم إلى مزيد من الظواهر التي أثرت في انحسار فاعلية الهوية الإسلامية في جانب الممارسة الجماعية لها وكان أهمّها:

– **نموّ التديّن الفردي على حساب المسؤوليات العامة للأمة**: ويؤدّي كلّ ما سلف إلى نموّ التديّن الفردي في عموم الأمة على حساب الالتزام الجماعي والمسؤوليّات الدينية العامة للأمة؛ فالعلماء يلوذون بالخطاب الفردي لعموم الأمة في خطبهم وكتبهم ورسائلهم، مما يؤدي إلى إعطاء مساحة أكبر للتكاليف الشرعية الفردية، وضمور المساحة المعطاة للتكاليف الكفائية الجماعية في الخطاب الديني، خوفا من بطش بعض الحكام، وهذا يؤدي إلى خفوت وهج الهوية الإسلامية **"كممارسة جماعية"** رغم بقائها متألقة كشعور عام بين أفراد الأمة الإسلامية.

ويُضاف إلى هذه العوامل الداخلية التي أدّت إلى انحراف مفهوم الهوية عن وضعه الشرعي الطبيعي في كيان الأمة:

– **المذهبية**: التي نشأت في الأمة الإسلامية، وكانت لها سلبيّاتها بأن تعصّب أبناء كل مذهب إلى مذهبهم، رغم أن تأثيرها في ضعف فاعلية الهوية الإسلامية لم يكن كبيرًا ولكنّه أحدث فعله في اضطراب هذه الفاعلية.

– **نشوء الفرق والطوائف**: وهذا أدى إلى تشيّع بعض طوائف الأمة إلى فرقها ومعتقداتها المنحرفة عن معتقد أهل السنة والجماعة، مما عزّز الفرقة في أجزاء من الأمة الإسلامية. ولئن كانت هذه الفرقة قد أحدثت فعلها في الإخلال بفاعلية الهوية الإسلامية عند من انحرف عن منهج أهل السنة والجماعة إلى مناهج المبتدعة كالشيعة والخوارج والمعتزلة وغيرهم، فالواقع التاريخي يشهد أن الثقل الأكبر كان لأهل السنة والجماعة في بلورة الهوية الجماعية للأمة الإسلامية.

– **أوضاعُ الفرقة**: التي سادت في العالم الإسلامي منذ أن تعدّدت الإمارات الحاكمة في بلاد المسلمين، ودارت بينها رحى الحروب والمعارك الطويلة التي قاتل فيها المسلمون إخوانهم المسلمين! ولكنّ الواقع التاريخي يشهد أنّ الأمة الإسلامية رغم بروز أوضاع الفرقة هذه كانت لها هوية واحدة متماسكة، وكان المسلم يسافر في بلاد المسلمين ويتنقّل بين الإمارات المختلفة دون وجود أيّ قيد لهذا التنقّل بل وحتى الإقامة، ودون الإحساس بالغربة بين إخوانه من المسلمين في أيّ البلاد حلّ، طالما كان فيها إخوة مسلمون ينتمي إليهم على أساس الإسلام، على عكس ما هو قائم في أوضاع الفرقة المعاصرة القائمة على أساس عقد "المواطنة" الذي يميّز بين المسلمين في الحقوق والصلاحيات على أساس المواطنة لا على أساس الإسلام[30]!

ولم يكن تأثيرُ العوامل الداخلية في انحراف الهوية الإسلامية عن وضعها الشرعي الطبيعي كما هو تأثير العوامل الخارجية.

---

30 يراجع بحث "المواطنة أم الأمة؟" لفضيلة الشيخ محمد بن شاكر الشريف، وهو موجود على موقع صيد الفوائد.

*** العوامل الخارجية:**

كانت الرابطة الإسلامية هي الرابطة الوحيدة التي يتجمّع حولها المسلمون ويعتزّون بها، وكانت الهوية الإسلامية هي التي تشكّل انتماءهم وولاءهم، فما الذي حدث بعد ذلك؟

الذي حدث هو دخول دعوات الاجتماع على "القومية" أو "الوطنية" في كيان الأمة الإسلامية مع بداية القرن الرابع عشر الهجري، وكانت هذه الدعوات صدى للاتجاه العالمي نحو فكرة القومية في القرن التاسع عشر[31]، الفكرة التي كانت أوروبا هي منشأها الأساسي ومحضنها الذي ولدت فيه، فكيف نشأت القوميات والوطنيات في أوروبا؟

ملابسات نشأة القوميات والوطنيات في أوروبا:

الدراسة العميقة لأحوال أوروبا منذ دخول النصرانية إليها حتى عصور انفصال الملوك والكنائس عن الكنيسة الأم، هذه الدراسة تظهر لنا الظروف والملابسات التي نشأت فيها الوطنيات أو القوميات في أوروبا، ولا بد لنا من إلمامه سريعة بالأسباب التي أدّت لنشوء الوطنيات هناك، حتى نسأل أنفسنا بعد ذلك: هل كان حتما علينا أن نخطو نفس الخطوات ونحن لم نمرّ بتلك الظروف ولم تكن عندنا تلك الأسباب؟

السبب الأول الذي شجّع على قابلية الانفصال عن الكنيسة في أوروبا هو أن الدين الذي فُرِضَ على أوروبا في عهد الإمبراطور قسطنطين عام 325 م كان دينا وثنيا محرفا خلط رسالة المسيح عليه السلام بعقائد الإغريق الوثنيين، وكان عقيدة مفصولة عن الشريعة، فلم تكن طبيعة التجمّع النصرانيّ في أوروبا كطبيعة التجمّع الإسلامي، فلا يستوي دين متكامل شامل يحكم العقيدة في الضمير والواقع في الحياة، ودين ممسوخ يضمر في الوجدان ويحكم بعض السلوك الفردي ولكنّه يعجز عن حكم الواقع الكبير للناس! بل كان الواقع العملي للناس تحكمه أهواء الأباطرة والقوانين الرومانية.

السبب الآخر هو أن العقيدة النصرانية تفرعت إلى مذاهب شتى تختلف في الأصول لا في الفروع كما هو الحال في الإسلام، فلم يساعد ذلك على الإحساس بالوحدة الشاملة عند النصارى في أوروبا، لأنهم يعلمون بوجود قطاعات أخرى في أماكن أخرى تختلف مع الكنيسة الكاثوليكية في الأصول لا مجرد الفروع.

وسبب ثالث إذا أضفناه لهذين السببين اكتملت عندنا الصورة التي تبيّن لنا: لماذا لم يرتقِ التجمّع النصراني في أوروبا في ظلّ الكنيسة حتى يكوّن "أمة" واحدة على الشكل الذي قام في العالم الإسلامي لقرون طويلة؛ وهو أن اللاتينية – لغة كتابهم – كانت اللغة الرسمية للإمبراطورية الرومانية، وتفرعت عنها الكثير من اللغات في أوروبا، ثم أدى انهيار الإمبراطورية الرومانية الغربية واستيلاء قبائل الجرمان على كثير من أجزائها إلى إضعاف الصلة باللاتينية لدى هذه الشعوب الأوروبية، وحصرها في حيّز ضيّق من المثقفين ورجال الدين. وبذلك تكون الإمبراطورية المسيحية قد افتقرت لعناصر ثلاثة تواجدت عند الأمة الإسلامية حتى تكون أمة واحدة متناسقة؛ فالإسلام لم يكن عقيدة منفصلة عن الشريعة، ولم تنشأ تلك الخلافات في أصول العقيدة التي تمزّق الوحدة بنفس الدرجة التي كانت عند النصارى في أوروبا؛ فقد نشأت خلافات عقدية خطيرة في

---

31 الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، د. محمد محمد حسين.

داخل كيان الأمة الإسلامية، ولكن الفارق الهائل أن الله قد تكفّل بحفظ كتابه وسنة نبيّه صلى الله عليه وسلّم المبيّنة له، وقيّض لها من يذب عنها من الأئمة الأعلام، واتصل الموروث جيلا بعد جيل، بخلاف الأمم الأخرى – ومنها النصارى في أوروبا – التي ارتكزت اختلافاتها على نظريات جدلية وأصول عقدية كبيرة كالأقانيم والآلهة وغيرها، ولا يوجد عندهم أي سند لنبيّهم الذي ينسبون أنفسهم إليه، ولا يمكن لهم أن يدعوا أنهم على ما كان عليه نبيّهم من عبادات وأحكام! وبالإضافة إلى ذلك كانت لغة الإسلام لفترة طويلة من الوقت لغة واحدة هي لغة القرآن، بينما لم يتوفر هذا الأمر لنصارى أوروبا كما بيّنا.

كان طغيان الكنيسة عاملا أساسيا في تفكّك الإمبراطورية النصرانية، وقد التقت كل ردود الأفعال على هذا الطغيان في وِجهة واحدة: **التفلّت من نفوذ الكنيسة والخروج عن سيطرتها**. وكانت أولى بوادر ذلك التفلّت تمرّد الملوك، إذ كانوا يريدون نزع السلطة الزمنية من يد الكنيسة وردّها لهم، وإبقاء السلطة الروحية للكنيسة، فلمّا جاءت دعوات "حركة الإصلاح الديني" التي نشأت على أساس الانفصال عن الكنيسة بسبب طغيانها بالأساس، وأخذت صورة الخلاف المذهبي في أصول العقيدة، لما جاءت تلك الدعوات أدّت إلى انفصال بعض الكنائس عن الكنيسة الكاثوليكية الأم، ككنيسة بريطانيا وألمانيا وكنائس أخرى، فما كان من الملوك إلا أن عملوا على السيطرة على تلك الحركات الإصلاحية، لا رغبة في الإصلاح، إنما لأنّ هذه الحركات الانفصالية كسبٌ لهم يمدّهم بالقوة ويُضعف سلطان الكنيسة، ومن ثمّ يساعدهم على التفلّت من نفوذها! ومن أمثلة حركات الإصلاح الديني حركة مارتن لوثر (1483 – 1546) الذي استعان بالألمان بني جنسه ضد الكنيسة اللاتينيّة، ونجح في ذلك نجاحا باهرا، وانفصلت أمة الألمان عن نفوذ الكنيسة اللاتينية، وذات الأمر حدث لبقية الأمم الأوربية، إذ استقلت شيئا فشيئا عن الكنيسة الأم، وقلّت روابطها ببعضها البعض، ومع الأيام ازدادت استقلالا بشؤونها، حتى إذا اضمحلّت النصرانية في نفوس الناس هناك قويت الرابطة العصبية القومية والوطنية، وأصبحت هي الآصرة التي يتجمّع حولها الناس[32].

بعد هذا العرض الموجز لملابسات نشأة القوميات والوطنيات الحديثة في أوروبا نتساءل: هل كان حتما على الأمة الإسلامية أن تخطو خطوات أوروبا في اتخاذ روابط التجمّع القومية والوطنية وهي لم تمرّ في تلك الظروف ولم تحدث عندنا تلك الملابسات فضلا عن مخالفتها الصريحة لحقائق الإسلام؟!

والحقيقة أنّ ذلك لم يكن حتما، ولكنّ تيارات كثيرة عملت على إحلال هذه الروابط مكان الرابطة الإسلامية أو زيادة عليها، وساعدت في ذلك ظروف العالم الإسلامي بعد سقوط الخلافة وبداية عهد الاحتلال والاستضعاف الذي جلب هذه الأفكار بقوة إلى العالم العربي والإسلامي، وربّى على عينه "أفراخا" من أبناء الأمة الإسلامية على هذه الأفكار، حتى إذا شبّوا وتبوّؤوا المناصب القياديّة في الحركات الاجتماعية والسياسية كانوا من دعاة القومية والوطنية.

التغريب:

---

32 مستفاد من كتاب "مذاهب فكرية معاصرة" للأستاذ محمد قطب، وانظر أيضا كتاب "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟" للشيخ أبي الحسن الندوي.

صاحبَ عهود الاستعمار التي ربضت على صدر الأمة الإسلامية لعقود طويلة عملية "تغريب" أُريدَ منها نزع مقوّمات الشخصية المسلمة، وزرع مقومات الشخصية الغربية الأوروبية في عقول المسلمين. ذلك أن المحتلّ الصليبيّ أدرك تمام الإدراك أنه لا سبيل للسيطرة على العالم الإسلامي ومقدّراته وإذلاله إلا بتمييع شخصيّته وطمس هويّتها الأصيلة، إذ لا يسمح "الاستعلاء" الإسلامي الذي يرى فيه المسلمون غيرهم من الكفار ضالين جهلة لا يعرفون الحق، لا يسمح هذا الاستعلاء بتقويض مكامن القوة في الأمة واستباحتها، فينبغي إذًا إحلالُ المفاهيم التي تلغي الفوارق على أساس العقيدة لتسهيل عملية الاحتلال والاغتصاب، وقد كان! ومن ضمن ما تمّ زحزحته عن وضعه الطبيعي هو المفهوم الإسلامي للهوية، فقد دخلت مفاهيم القومية والوطنية في كيان الأمة على شكل أفكار ومن ثمّ على شكل كيانات واقعية تفرّق الأمة وتشتّتها!

كانت عمليّة تمييع الهوية الإسلامية عن طريق هذه الهويات الدخيلة عبارة عن كسر لحاجز حماية حضاري، حمى الأمة الإسلامية من هجمات المحتلّين عبر العصور، فتكاتفت الأمة تحت لوائه لطرد الغزاة من الصليبيّين والتتار وغيرهم من الشعوب. وكانت الهوية الإسلامية صبغةً للبلاد الإسلامية كلّها لا تشاركها فيها صبغة أخرى، فيتنقّل المسلم بل وغير المسلم في بلاد المسلمين من غربها إلى شرقها ومن شمالها إلى جنوبها على اختلاف ولاياتها وإماراتها ودولها، يتنقّل فلا يسأله أحد عن رسوم عبور "للحدود"! ولا يسأله أحد عن "مواطنة" حتى ينال حقوقا في بلد غير البلد الذي نشأ فيه! بل كان بالإمكان أن يتبوّأ المسلم المناصب الإدارية والوزارية في بلد لم ينشأ فيه ولا يحمل فيه هوية "مواطنة"!

لم يكن الاستعمار ليستمرّ طويلا في البلاد الإسلامية؛ ذلك أن معامل المقاومة لم يهدأ لها أوار طوال فترة الاستعمار؛ فهذه الأمة لا تموت أبدا، مهما بدا عليها من ظواهر التفكك والانهيار. ولكنّ الحقد الصليبي الذي يدفع إلى إذلال العالم الإسلامي والسيطرة عليه لم يكن ليهدأ أيضا، ولعاب الدول المحتلّة لم يكن ليكفّ عن السيلان! فكان أن عملت هذه الدول الغربية قبل خروج جحافلها من بلاد المسلمين على ترسيخ الأفكار الوطنية في كيان الأمة، بل وتقسيمها واقعيّا في الاتفاقيات المشؤومة وأبرزها "معاهدة سايكس – بيكو"، وعهدتْ إلى أفراخها ممّن تربّوا على عينها بإدارة شؤون هذه الكيانات الوليدة الجديدة التي سمّيت "دولا" وحملت الطابع القومي والوطني.

واستمرارا في عرض السياق التاريخي لعملية التغريب ونشوء القوميات والوطنيات في العالم العربي والإسلامي ننقل هذه الفقرات من كتاب **"الأمة الإسلامية من التبعية إلى الريادة"** للدكتور محمد محمد بدري، فقد أجاد في تلخيص هذا السياق التاريخي النكد الذي مرّت فيه الأمة الإسلامية:

"ولكي يستريح الغرب من شبح ائتلاف الأمة الإسلامية الذي يفزعه ويؤرقه، كان من الضروري تلوين الحياة المحلية في كل بلد من بلاد (دار الإسلام) بلون خاص يستند في مقوماته إلى أصوله الجاهلية الأولى، فتعود الحياة الاجتماعية التي وحّد الإسلام مظاهرها إلى الفُرْقة والتشعب، وذلك برجوعها إلى أصولها القديمة السابقة على الإسلام..

"ومن هنا كان أسلوب نبش الحضارات القديمة وإحياء معارفها هو أحد الخيوط الأساسية التي تكوّن (الشَّرَك) الذي يُراد به احتواء المسلمين وأمتهم، وكان المخطط الخبيث الذي حمله الصليبيون وهم يجوسون ديار الإسلام "هو نبش الأرض

لاستخراج حضارات ما قبل التاريخ، لذبذبة ولاء المسلمين بين الإسلام وبين تلك الحضارات، تمهيداً لاقتلاعهم نهائياً من الولاء للإسلام "(1).

"ومصداق هذا الكلام قول أحد المستشرقين في كتاب "الشرق الأدنى مجتمعه وثقافته" وهو يتحدث عن أسلوب نزع ولاء المسلمين فيقول: إننا في كل بلد إسلامي دخلناه نبشنا الأرض لنحصل على تراث الحضارات القديمة قبل الإسلام، ولسنا نعتقد بهذا أن المسلم سيترك دينه، ولكنه يكفينا منه تذبذب ولائه بين الإسلام وتلك الحضارات"(2).

وقد ظهرت الدعوة إلى إحياء الحضارات السابقة على الإسلام في وقت واحد في تركيا والشام ومصر والعراق وشمالي إفريقيا والهند وإندونيسيا، بمظهر (واحد) وأساليب (متشابهة)!!

ففي مصر بدأت النعرة (الفرعونية) تطلّ برأسها، وكثر التغنّي بالأمجاد الحضارية للفراعنة، فهذا حافظ إبراهيم يقول:

أنا مصري بناني من بنى   هرم الدهر الذي أعيى الفنا!

"وكما حدث ذلك في مصر، حدث في العراق فرجعت إلى (الآشورية)، وفي اليمن فرجعت إلى (الحميرية).. وكل بقعة من (دار الإسلام) أخذت تنادي بهذه النعرات الجاهلية التي تحسّن سمعة الجاهلية، وتبثّ النعرات الانفصالية بين الأمة وبين ماضيها الحقيقي أو على الأقل تشغلها عنه(3)..

"وهكذا بعد أن كان البراء أمراً ملازماً تجاه هذه النعرات الجاهلية، أصبح أمراً لا وجود له إلا عند من رحم الله.

"ولما أدرك أعداء الأمة الإسلامية مدى جدوى هذه الفكرة في نزع الولاء الإسلامي ليحل محله الولاء الجاهلي، وفي (تغييب) الهوية الإسلامية التي تميز المسلم وتجعله مستعصياً على الذوبان في الأمم الأخرى.. لما أدرك الأعداء ذلك أخذوا في بث (سموم) الفكرة الوطنية، والتي تبث الشعور بالوطنية الإقليمية في الأمة، وتنادي بأن الأمة تقوم – حسب تصورهم – على الجنس لا على الدين[33]، فالوطنيون يحبون أبناء وطنهم وإن كانوا على غير ملتهم إذا لم يكونوا في وطنهم!!

"وهكذا بفعل هذه الدعوة الخبيثة "أصبح الوطن هو الرقعة الضيقة التي يعيش فيها المواطن، وهو مجال أحلامه وأمانيه، بغضّ النظر عن بقية أوطان المسلمين، فهم غرباء عنه وعن وطنه، بل كثيراً ما حصلت الحروب والاصطدامات بين الأقطار المتجاورة"(1).

---

(1) واقعنا المعاصر – محمد قطب ص 202.

(2) الولاء والبراء – محمد سعيد القحطاني ص 416.

(3) يراجع في هذا بتوسع كتاب الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر – د. محمد حسين.

33 الوطنية دعوة تختلف عن القومية، فالقومية تقوم على العرق أو الجنس بغض النظر عن موطنه، كالجنس العربي، والتركي، والفارسي، والبربري، والوطنية تقوم على انتماء لقطعة محدودة من الأرض بغض النظر عن أصول المنتمي العرقية، فالمصري ذو الأصل العربي يستوي فيها عند المصري ذي الأصل الفرعوني، أو الإغريقي، أو المملوكي، أو العثماني، أو الحبشي، أو البربري، أو البلقاني.

(1) الحياة السياسية عند العرب – محمد الناصر ص 224.

"وصارت الوطنية "هي تقديس الوطن بحيث يصير الحبّ فيه والبغض لأجله، والقتال من أجله وإنفاق الأموال من أجله حتى يطغى على الدين وحتى تحلّ الرابطة الوطنية محلّ الرابطة الدينية"(2)!! بل إن الأمر ليصل إلى جعل الوطن إلهاً يستحق العبادة مع ربّ العالمين، وكما صرح بذلك أحمد شوقي وهو يتحدث عن مصر:

وجه الكنانة ليس يغضب ربكم   أن تجعلوه كوجهه معبودا

ولّوا إليه في الدروس وجوهكـــم   وإذا فزعتم فاعبدوه هجودا

"ولم يكن شوقي يعبّر في ذلك عن مجرد نزوة من نزوات الجرأة التي يولع بها الشعراء طلباً للغرابة وادعاءً لعمق الفكر، وإنما كان في الحقيقة يعبّر عن تيار الوطنية الذي بدأ في الاستقرار في ديار الإسلام منذ ذلك الحين.. والذي لم تنطفئ نيرانه حتى اليوم.."34.

وهكذا استقرّت الهويات القومية والوطنية وتحوّلت إلى "ثوابت" لا يمكن الحديث عن تجاوزها إلا بمنطق "الخيانة"! واصطبغتْ الأنظمة العلمانية العميلة التي زرعها الغرب ودعمها بهذه الهويات[35]. وكانت أنظمةً دكتاتوريةً وعسكريةً في معظمها، مما أدى إلى زيادة الشعور بفقدان الانتماء لدى الأمة تجاه هذه الأنظمة، وازداد الإحساس باللامبالاة وتجذّر وتعمّق؛ فالأمّة التي لم تعتد على أَطْرِ الحاكم المسلم الذي يقيمُ شريعة الله على الحق والعدل كان من الطبيعي ألا تبالي بهذا الواجب تجاه الحكّام العلمانيين العملاء، وقد كان هذا مع الأسف! فتوالت النظم العميلة التي تحكم الأمة الإسلامية بالعلمانية، وتتخذ من "الوطنية" هويّة لها وشعارا، وأصبح الأمر في حسّ الأمة أمر غالب ومغلوب، لا علاقة لها به إلا أن تهتف في أحيان لزعيم يظهر، ولكن سرعان ما يتّضح لها أنّها كانت تهتف لطاغية عميل للقوى العالمية المتحكّمة بشؤونها العامة! والأمّة التي لا تدير شؤونها العامة، ولا تُدار هذه الشؤون لها بناء على مشربها الحضاري الإسلامي، لا بدّ أن يخفت فيها وهج الهوية الإسلامية وتخفت فاعليّتها؛ فالهوية – ككلّ مفهوم – شعورٌ وممارسة، وهي ممارسة جماعية على أسس جامعة ثابتة، فإذا ما غابت هذه الممارسة الجماعية ضاع التأثير الحقيقي لها، وانحصرت اهتمامات الأفراد بشؤونهم الذاتية، فلم تستطع هذه الدول بنظمها وهويّاتها الدخيلة التي تمسّحت بها – سواء كانت هي القومية أو الوطنية – أن تحقّق ذلك الاستقطاب والجذب الذي تحقّقه الهوية الإسلامية، التي هي الهوية الأصيلة لهذه الأمة. وبذلك فشلت هذه الهويات بإخراج الأمة من حالة "الاغتراب" التي أحدثها الغرب المحتلّ، بل زادتها وبالاً بسبب الفراغ الاجتماعي الذي أحدثته بعد طمس معالم الهوية الإسلامية وقتل فاعليّتها الحقيقيّة.

---

(2) أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية – علي بن نفيع العلياني ص 411.

34 الأمة الإسلامية من التبعية إلى الريادة "بتصرّف يسير"، د. محمد محمد بدري.

35 في الظاهر تحمّلا للشعوب، وإلا فهي مفتقدة على الحقيقة لأي حسّ قومي أو وطني حتى وإن ناقض مفهوم الولاء في الإسلام! بل هي منسلخة من الانتماء لمصالح أمتها على كل المستويات.

القوميّة العربية كهوية

يسجّل التاريخ الحديث أن فكرة "الهوية القومية" فكرة غريبة دلفتْ إلى العالم العربي والإسلامي تأثّرًا بالغزو الثقافيّ الأوروبي، وقد بيّنا في الفصل السابق الصيرورة التاريخية والظروف التي تمخّضتْ عن فكرة "القوميات"، ونشأة الدول على أساس الهوية القومية. وكانت النزعة القومية عبارة عن مواجهة وتصدٍّ لفكرة "الخلافة الإسلامية" التي ناهضها القوميّون الأوائل بل وعملوا على هدمها، كما أنّهم تأثّروا بالقومية التركية التي سبقت القومية العربية.

والطابع الأبرز لفكرة القومية العربية أنه قد واكبها منذ نشأتها خطابٌ بعيد عن الموضوعية وإيجاد الحلول العملية الحقيقيّة لبناء أمة؛ حيث كانت "العواطف" هي صاحبة الدور الأبرز في تسويق هذه الفكرة في كيان الأمة الإسلامية، وأما دورها الموضوعي التطبيقي في بناء أمة لها نظامها الخاص الفريد المنبثق عن مفاهيمها، فكل ذلك كان عائشا في منطقة العدم؛ إذ لا يوجد نظام متكامل ينبثق عن الفكرة القومية! وقد وجدنا أنّ حَمَلَة هذه الفكرة قد أقاموا أنظمة ودولاً تحكم الأمة لا علاقة لها بالفكرة القومية، كالملكيّة والاشتراكية والديمقراطية، فهذه كلها غيرُ مبنية على الفكرة القومية، مما يُظهر قصورها "وإنشائيّتها" على حساب الواقعية التي ينبغي أن تتّسم بها الهوية التي تجمع الأمة، التي ينبغي أن تجيب على أسئلة النهضة وبناء الأمم والحضارات.

وبالعودة إلى تعريفات القومية نجد أنّها تدور حول معنى واحد يشكّل مفهوم "الهوية القومية"، فهي عبارة عن: **نزعة وحدويّة تتمحور حول مشتركات من اللغة الواحدة، والأصول العرقية الواحدة، والتاريخ الواحد، والثقافة الواحدة، وهذه المشتركات جميعها تشكّل مفهوم الهوية القومية، بحيث تكون عبارة عن محور استقطاب يجمع أمّة معينة، وفي الحالة التي نعالجها تكون هي "الأمة العربية"**.

فالقوميّ العربيّ ينتمي إلى لغته العربية، وإلى قوميّته، وإلى تاريخ العرب منذ فجرهم قبل الإسلام مرورا بالعهود الإسلامية المختلفة، وإلى الثقافة الذي نشأت في المنطقة العربية وبين شعوبها العربية، بما تضمّ من عادت وتقاليد وأفكار وآداب، سواء كانت لها أصول إسلامية أم لم تكن. وهو ينتمي إلى كل عربيّ نشأ وجمع بين هذه المشتركات وانتمى إليها، وهؤلاء يشكّلون الأمة العربية، التي هي محور استقطاب لهم؛ فتجمعهم وحدة الأهداف والطموحات، ووحدة الآمال والآلام، ووحدة التاريخ والمستقبل. وهكذا تشكّلت فكرة "الهويّة القومية" كفكرة حديثة لم يكن لها أي وجود في تاريخ العرب قبل دخول الغزو الفكري في العصر الحديث. فقد اجتمعت لدى العرب قبل الإسلام كل مقوّمات التجمّع هذه ولم تتكوّن منهم أمّة لها هوية واحدة تجمعها، ولا كيان سياسي جامع تعرف به، بل كانت النزعات القبلية هي المسيطرة على عوامل الوحدة والافتراق.

وفي هذا الفصل سوف نبيّن كيف لا يمكن أن تكون القومية العربية هي "هوية" المسلم، بجميع مقوّماتها التي تشكّلها، ولنبدأ بالحديث عن اللغة العربية كعنصر من عناصر الهوية.

مكانة اللغة العربية اللائقة بها:

العربيّة عبارة عن "لغة" نتمسّك بها ونحافظ عليها بجهد جهيد؛ لكونها لغة "الدين" الذي نزل على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والذي توجّب على البشر اتباعه؛ ليكونوا محقّقين لغاية وجودهم الإنساني على هذه الأرض. فالحفاظ عليها حفاظٌ على "فهم" النصّ الشرعي، فهو إذن حفاظٌ على أهمّ نعمة يهتمّ المسلم بها في هذه الحياة؛ نعمة الإسلام؛ منهج الحياة البشرية الذي – عن طريقه وحده – يمكن للإنسان أن يقوم بواجب "العبودية" لله عزّ وجل. قيمة العربية إذن كبيرة وخطيرة لتعلّقها بأكبر قيمة للإنسان على وجه الأرض: "العبودية"، أو بكلمات أخرى "غاية الوجود الإنساني". ولذلك بذل المسلمون منذ ظهور الإسلام الجهودَ الكبيرة في الحفاظ على العربية ورفع مكانتها وتدوين قواعدها وأصولها، وكانت من أعجب ظواهر التاريخ ظاهرة تحوّل شعوب بأكملها للتحدّث بالعربية ونسيان لغاتها الأصلية لارتباط العربية بفهم دين الله عزّ وجل (النص القرآني على وجه الخصوص) وعِظَمِ مكانتها – تبعًا لذلك – في نفوس أبناء هذه الشعوب!

تلك هي مكانة "العربية" اللائقة بها في الواقع التاريخي للأمة الإسلامية، وكما ينبغي لها أن تكون في واقعها المعاصر. والأصل ألا تتجاوز العربية هذه المكانة اللائقة بها؛ أنها ركن أصيلٌ من "الثقافة الإسلامية"[36] وليست "هوية" للأمة ولا تشكّل محور استقطابها، وذلك لأن اللغة – كما هو معروف – وعاء الفكر، ولا يمكن بحال من الأحوال للّغة وحدها أن تشكّل "القيم الفكرية"، إنما تتشكّلُ القيم الفكرية بداخل هذا الوعاء الذي هو اللغة. فالنصّ القرآني – على سبيل المثال – يحوي قيمًا فكريّةً ومعنوية تتشكّل باللغة العربية، ومصدر هذه القيم الفكرية والمعنوية ليس هو اللغة العربية إنما هو "الوحي"، فلا يمكننا أن نزعم بعد ذلك أن اللغة هي مصدر هذه القيم كما هو واضح لكل ذي عقل. وبناء على ذلك لا يمكن أن تكون اللغة هي "الهوية" لأمة من الأمم، لأن الهوية مفهوم يتضمّن **"القيم"** أو **"المفاهيم"** التي تشكّل محور استقطاب الأمة وانتماءها، والتي تجيب على الأسئلة: من نحن؟ وماذا نريد؟ وكيف نحقّق ما نريد؟ والعربية – كلغة – لا تحمل كما أسلفنا – بذاتها – أيّة قيمة يمكن أن تشكّل محور استقطاب الأمة وانتماءها، ولا تملك أن تجيب على هذه الأسئلة الضرورية في الحياة، وقد بيّنا في بداية الفصل كيف أنّ الهويّة القومية العربية لا تملك أن تجيب على أسئلة النهضة، ولا تملك منهجا تطبيقيّا لبناء الأمم والحضارات!

الأصول العرقية.. والتاريخ.. والثقافة:

وكذلك الأمر بالنسبة لمقومات المفهوم القومي الأخرى، وهي: وحدة الأصول العرقية، وحدة التاريخ، وحدة الثقافة. فها هم العرب في جاهليتهم قبل مجيء الإسلام، هل كانت "العربية" أو "العروبة" هوية مشتركة تجمعهم على الرغم من وحدة اللغة والأصول العرقية والتاريخ والأرض والثقافة.. إلخ التاريخ يقول إنهم لم يتجمّعوا تحت انتماء واحد، ولم تستقطبْ عقولهم ومشاعرهم مفاهيم واحدة تشكّل منهم أمة ذات هويّة واحدة!

---

36 راجع – إن شئت – "رسالة في الطريق إلى ثقافتنا" للأستاذ الأديب محمود محمد شاكر، ففيه تفصيل قيّم عن مكانة العربية في الثقافة الإسلامية وفي حضارة المسلمين.

لقد كانوا – بخلاف ذلك – قبائل متناحرة متنابذة تدور بينها الحروب، وتشكل العصبية القبلية — لكل قبيلة — محورَ الاستقطاب والانتماء. وكانت هناك عناصر كثيرة تجمعهم: وحدة اللغة، وحدة الأصول العرقية، وحدة التاريخ، وحدة الأرض، وحدة الثقافة والتراث والتقاليد والمعتقدات، وحدة المصالح.. إلخ ولكنّ أيّا من هذه العناصر لم يكوّن منهم أمة واحدة متماسكة ذات هويّة مشتركة، وكان العنصر الوحيد الذي دخل عليهم ودفعهم إلى تكوين "أمة" تستقطبها مفاهيم موحدة تحدّد انتماءها هو "الإسلام".

تلك حقائق لا يجادل فيها إلا مغالط، فكيف نريد للهوية القومية أن تشكّلَ محورَ الاستقطاب للمسلمين اليوم بعد أن ضعفت فيهم رابطة الوحدة على أساس القومية؟ لقد اختلط العرب بأنساب أخرى، وبلغات أخرى، وبثقافات أخرى، ودخل الإسلام وانصهر بثقافته شعوب كثيرة غير عربية، وتوسّعت الرقعة التي يقطنها المسلمون في أنحاء العالم، بحيث لم يعد هناك مجال للحديث عن قومية واحدة تجمعهم إلا باستثناء معظم المسلمين في أنحاء العالم؛ إذ لا يشكّل المسلمون ذوو اللسان العربي والأصول العربية إلا ما يقارب خمس تعداد المسلمين حول العالم! أيّ إقصاء نمارسه في حقّ معظم المسلمين حول العالم ممّن تجمعنا معهم عقيدة واحدة، وثقافة واحدة (هي الثقافة الإسلامية)، وصبغة واحدة في الخلق والمعاملات، وأهداف واحدة وطموحات واحدة تنبثق من المنهج الواحد الذي هو الإسلام.. أيّ إقصاء نمارسه في حقّهم إذا نحن اتخذنا "القومية العربية" هويّة لنا، تحدد انتماءنا وأهدافنا وتجمعنا من دون الناس؟ إنّه إقصاء لهؤلاء المسلمين، وهو كذلك تجزئة وتفتيت لوحدة الأمة الإسلامية الواحدة، وتفرّق ذمّه الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم[37] وعودة إلى الجاهلية نمارسها بتجمّعنا على أساس القوميّات كما كانت الجاهليات القديمة تثور فيها النعرات القومية ويتجمّع الناس فيها على أساس هذه القوميات ممّا جاء الإسلام لإزالته!

والأمر كذلك أن الهوية القومية — بجميع مكوّناتها — لا تنطوي على مضمون قيميّ واضح ومحدّد يمكن أن نستقي منه المفاهيم والإجابات على الأسئلة الكبرى لبناء الأمم، ولا يمكن أن تحدّد لنا وجهة أو ترسم لنا أهدافًا نتطلّع إليها كأمة، وتلك هي أهم مميزات الهوية الأصيلة والنافعة للأمة والتي تفتقدها الهوية القومية بجميع مكوّناتها.

فاللغة العربية – كما بيّنا – محور اهتمام له حجمه الطبيعي "الموضوعي" الذي يليق به، وينبغي لنا أن نُلبسها ثوبًا على قدّها، لأن إلباسها الثوب الفضفاض يشكّل "أزمة موضوعية" تتمثّل بتحوير مفهومها "كلغة"، بالإضافة إلى افتقادها — بذاتها – إلى "القيم" و"المفاهيم" التي يمكن أن تجعل منها "هويةً" أو "انتماءً"! وكذلك الأمر بالنسبة للأصول العرقية العربية، فهي بحدّ ذاتها وراثة لا تقدّم ولا تؤخّر في قضايا الأمم الكبرى وأهدافها وقيمها، وبناء على ذلك لا يمكن أن تشكّل مصدرا لمقومات "الهوية" من هذا الباب[38].

---

37 يقول تعالى في سورة آل عمران: "واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرّقوا"، فنهى المسلمين عن التفرّق، وأمرهم قبل ذلك بالاعتصام بحبل الله الذي هو القرآن كما يقول المفسرون، وبديهي أن الانتماء حسب مفهوم هذه الآية لا يكون إلا للإسلام الذي ينبغي للمسلمين أن يعتصموا ويستمسكوا به.

38 سيأتي الحديث عن "العنصرية" المتمثّلة بجعل الأصول العرقية عنصرا في الهوية.

والتاريخ المشترك الذي يتحدّث عنه القوميّون لا يمكن بحال أن يكون عنصرا من عناصر الهوية، فهل مجرد الأحداث التاريخية المشتركة التي عاصرتها أجيال بعد أجيال في المنطقة العربية تشكّل أحد عوامل الوحدة والانتماء؟ إنّ الواقع التاريخيّ ينقض هذا الخبل وينسفه! فالتاريخ يسجّل أن أحداثا كثيرة في المنطقة كانت مشتركة مع شعوب أخرى غير عربية عاشت في المنطقة أو اشتركت بهذه الأحداث، فهل في النظرة القومية بناء على وحدة التاريخ يكون هناك انتماء إلى هذه الشعوب غير العربية؟! بل وإن كثيرا من القادة المسلمين الذين كانوا في مقدّمة التغييرات الكبرى لصالح الإسلام والمسلمين لم يكونوا عربًا؛ كصلاح الدين الكردي، والظاهر بيبرس القبجاقي، وغيرهم.. فهؤلاء من قوميات أخرى غير القومية العربية، وهم مع ذلك حاضرون بقوة في السياق التاريخي للمنطقة! ثم إنّ التاريخ يسجّل كذلك أن صراعات كثيرة دارت بين فريقين كلاهما من العرب! كالحروب التي كانت دائرة بين الأمراء والدويلات التي نشأت في المنطقة في العصور الإسلامية، بل والحروب التي دارت بين العرب في الجاهلية. إنّ التاريخ بحدّ ذاته أحداث تقع، وهو في حقيقته **جريانٌ للسنن الربانية على الحياة البشرية**[39]، وجعْله عنصرا من عناصر الوحدة فيه إشكال باعتبار غبش هذا العنصر وصعوبة تحديده، وباعتبار تداخله وتشابكه وتطاوله عبر الأزمان والعصور، واشتراك شعوب أخرى به، فلا يمكن أن يشكّل عنصرا من عناصر هويّة المسلم، فضلا عن الأسباب الشرعية الواضحة التي بيّناها سابقا وسنبيّنها بأدلّة أخرى في نهاية الفصل، والتي تجعل من غير الجائز أن يدخل في هوية المسلم أي عنصر يستقطبه للوحدة والانتماء غير الإسلام.

وأمّا الحديث عن وحدة الثقافة فلا يقلّ ضبابية من الحديث عن وحدة التاريخ؛ فالثقافة المشتركة التي يتبجّح بها القوميّون ما هي بالضبط؟ وما معناها؟ ومن أين نستقيها؟

الواقع التاريخي يسجّل أن المنطقة العربية عجّت بثقافات مختلفة متباينة بل ومتناقضة في بعض الأحيان! فالثقافة الجاهلية التي عاشت في عقول العرب قبل الإسلام مختلفة أشدّ الاختلاف عن الثقافة الإسلامية التي ظلّلتهم وظلّلت المنطقة على مدى أكثر من ثلاثة عشر قرنا، فإلى أيّها ننتمي؟ وكيف ننتمي إلى جميع ما عجّ في المنطقة من ثقافات وهي متباينة مختلفة؟ هل ينتمي الإنسان إلى متناقضات تتنازعه وتشتّت وحدة كيانه؟!

ويحسن بنا في هذا المقام أن نبيّن المفهوم الحقيقي للثقافة، وكيف أن الثقافة الإسلامية التي ظللت المنطقة طوال العهود السابقة هي التي ينبغي أن ينتمي إليها المسلم، وأن "اللغة العربية" جزء أصيل من هذه الثقافة، ولكنّها لا تشكّل وحدها محور انتماء واستقطاب للمسلمين. وننقل هذه الفقرات في الحديث عن الثقافة الإسلامية من رسالة **"في الطريق إلى ثقافتنا"** للأستاذ الأديب محمود محمد شاكر:

"فإن (الثقافة)، فاعلم، تكاد تكون سرّا من الأسرار الملثّمة في كل أمّة من الأمم وفي كل جيل من البشر، وهي في أصلها الراسخ البعيد الغَوْر، معارف كثيرة لا تحصى، متنوّعة أبلغ اللتنوّع لا يكاد يحاط بها، مطلوبة في كلّ مجتمع إنسانيّ للإيمان بها أوّلا عن طريق العقل والقلب= ثمّ للعمل بها حتى تذوب في بنيان الإنسان وتجري منه مجرى الدم لا يكاد يحسّ به ثمّ الانتماء إليها بعقله وقلبه وخياله انتماء يحفظه ويحفظها من التفكك والانهيار، وتحوطه ويحوطها حتى لا يفضي إلى مفاوز

39 هذا هو التفسير الإسلامي للتاريخ.

الضياع والهلاك. وبين تمام الإدراك الواضح لأسرار (الثقافة) وقصور هذا الإدراك، منازل تلتبس فيها الأمور وتختلط، ومسالك تضلّ فيها العقول والأوهام حتى ترتكس في حمأة الحيرة، بقدر بعدها عن لباب هذه (الثقافة) حقائقها العميقة البعيدة المتشعّبة".

ويقول في موضع آخر: "**ورأس كل (ثقافة) هو (الدين) بمعناه العام، والذي هو فطرة الإنسان، أيّ دين كان = أو ما كان في معنى (الدين)**".

ويقول في موضع ثالث: "(الثقافة) في جوهرها لفظ جامع يقصد بها الدلالة على شيئين أحدهما مبنيّ على الآخر، أي طوران متكاملان:

الطّور الأوّل: أصول ثابتة مكتسبة تنغرس في نفس (الإنسان) منذ مولده ونشأته الأولى حتى يشارف حدّ الإدراك البيّن، جماعها كلّ ما يتلقّاه عن أبويه وأهله وعشيرته ومعلّميه ومؤدّبيه حتى يصبح قادرا على أن يستقلّ بنفسه وبعقله، وتفاصيل ما يتلقّاه الوليد حتى يترعرع أو يراهق، تفوت كلّ حصر بل تعجزه. وهذه الأصول ضرورة لازمة لكل حيّ ناشئ في مجتمع مّا، لكي تكون له (لغة) يبين بها عن نفسه، و(معرفة) تتيح له قسطا من التفكير يعينه على معاشرة من نشأ بينهم من أهله وعشيرته.

إلى أن يقول: "ولأنّ (الإنسان) منذ مولده قد استودع فطرة باطنة بعيدة الغور في أعماقها، توزعه، (أي تلهمه وتحرّكه)، أن يتوجّه إلى عبادة ربّ يدرك إدراكا مبهما أنّه خالقه وحافظه ومعينه، فهو لذلك سريع الاستجابة لكلّ ما يلبّي حاجة هذه الفطرة الخفيّة الكامنة في أغواره. وكلّ ما يلبّي هذه الحاجة، هو الذي هدى الله عباده أن يسمّوه (الدّين)، ولا سبيل البتّة إلى أن يكون شيء من ذلك واضحا في عقل الإنسان إلا عن طريق (اللّغة) لا غير، لأن (العقل) لا يستطيع أن يعمل شيئا، فيما نعلم، إلا عن طريق (اللغة). **فالدّين واللّغة، منذ النشأة الأولى، متداخلان تداخلا غير قابل للفصل (يقول في الهامشة: في حياتنا الأدبية الفاسدة، تروج دعوة خبيثة جاهلة لفصل (اللغة) عن (الدين)، وهذا شيء لا يبشّر إلاّ بمفارقة دين، والدخول في دين آخر يصنعونه لأنفسهم)، ومن أغفل هذه الحقيقة ضلّ الطريق وأوغل في طريق الأوهام. هذا شأن كل البشر على اختلاف مللهم وألوانهم، لا تكاد تجد أمّة من خلق الله ليس لها (دين) بمعناه العام، كتابيّا كان، أو وثنيّا، أو بدعا، ((البدع))، ليس له كتاب أو وثن معبود). ولذلك، فكل ما يتلقّاه الوليد الناشئ في مجتمع ما، من طريق أبويه وأهله وعشيرته ومعلّميه ومؤدبيه، من (لغة) و(معرفة)= يمتزج امتزاجا واحدا في إناء واحد، ركيزته أو نواته وخميرته دين أبويه ولغتهما، وأبلغهما أثرا هو (الدين)** فالوليد في نشأته يكون كل ما هو (لغة) أو (معرفة) أو (دين) متقبلا في نفسه تقبل (الدين)، أيّ يتلقّاه بالطاعة والتسليم والاعتقاد الجازم بصحته وسلامته، وهذا بيّن جدا إذا أنت دقّقت النظر في الأسلوب الذي يتلقّى به أطفالك عنك ما يسمعونه منك، أو من المعلّم من المراحل الأولى من التعليم. ويظلّ حال الناشئ يتدرّج على ذلك، لا يكاد يتفصّى شيء من معارفه من شيء[40] حتى يقارب حدّ الإدراك والإستبانة ولكنه لا يكاد

---

40 يتفصّى: أي يتخلّص من هذا المضيق.

يبلغ هذا الحدّ حتى تكون لغته ومعارفه جميعا قد غمست في (الدين) وسبغت به. وعلى قدر شمول (الدين) لشؤون حياة الإنسان، وعلى قدر ما يحصل من الناشئ، يكون أثره بالغ العمق في لغته التي يفكر بها. وفي معارفه التي ينبني عليها كل ما يوجبه عمل العقل من التفكير والنظر والاستدلال.

إلى أن يقول: "و(ثقافة) كل أمّة وكل (لغة) هي حصيلة أبنائها المثقفين بقدر مشترك من أصول وفروع، **كلها مغموس في (الدين) المتلقّى عند النشء. وهو لذلك صاحب السلطان المطلق الخفيّ على اللغة وعلى النفس وعلى العقل جميعا، سلطان لا ينكره إلا من لا يبالي بالتفكّر في المنابع الأول التي تجعل الإنسان ناطقا وعاقلا ومبينا عن نفسه ومستبينا عن غيره.** فثقافة كل أمّة مرآة جامعة في حيّزها المحدود كلّ ما تشعّث وتشتّت وتباعد من ثقافة كلّ فرد من ابنائها على اختلاف مقاديرهم ومشاربهم ومذاهبهم ومداخلهم ومخارجهم في الحياة. وجوهر هذه المرآة هو (اللغة)، **و(اللغة) و(الدين)، كما أسلفت، متداخلان تداخلا غير قابل للفصل البتّة.**

إلى أن يقول: "وهذا باب واسع جدا ليس هذا مكان بيانه، ولكني لا أفارقه حتى أنبّهك لشيء مهم جدّا، هو أن تفصل فصلا حاسما بين ما يسمّى (ثقافة) وبين ما يسمّى اليوم (علما)، (أعني العلوم البحتة)، لأنّ لكل منهما طبيعة مباينة للآخر، **فالثقافة مقصورة على أمّة واحدة تدين بدين واحد،** والعلم مشاع بين خلق الله جميعا، يشتركون فيه اشتراكا واحدا مهما اختلفت الملل والعقائد"[41].

والذي يهمّنا استخلاصه من كلام الأستاذ محمود شاكر هو أن الثقافة لا يمكن بحال أن تكون ثقافة قومية عربية مجرّدة عن أساسها الذي هو الدين، وإنما اللغة العربية هي شطر أصيل في هذه الثقافة؛ فهي وعاء للفكر، وبدون وجودها لا يمكن أن تكتمل الثقافة، ولكنّها وحدها لا يمكن بحال أن تشكّل ثقافة نسمّيها "ثقافة عربية". فحين نسمّي ثقافتنا "الثقافة العربية" نكون قد حِدْنا عن التوصيف الموضوعي لحقيقة الثقافة، فالعنصر الرئيسي في هذه الثقافة هو "الدين"، ولا يمكن بحال أن يكون الدين منفصلا عن اللغة التي تتشكل فيها الأفكار في ذهن الإنسان، ولذا فالإنسان يستخدم اللغة في الإبانة عمّا في نفسه من نزعات فطريّة ومكتسبات اكتسبها وفهمها أيضا بطريق اللغة، فهي عنصر أصيل في الثقافة لا يمكن تجاهله، ولكنّها تجمع كلّ الأمة الإسلامية، وليس العرب مختصّين بها، لأنّ أساسها ورأس أمرها "الدين"، ولقد بيّن لنا التاريخ كيف دخلت شعوب بأكملها في دين الله ومن ثمّ في اللسان العربي تبعًا لذلك، واقتضاءً لما يوجبه فهم الإسلام من تعلّم العربية وإتقانها. وعرّفَنا التاريخ كيف انتشر اللسان العربيّ مع الإسلام حتى وصل إلى المغرب الأقصى في إفريقيّة! ثم عرّفَنا التاريخ بعد ذلك كيف استقرّ حال انتشار العربية وتوقّف حين توقّف التوسّع الإسلامي على هذه المساحات، حين انحسرت حيويّة الأمة الإسلامية عن واجب الدعوة إلى الله وتعريف الشعوب بالإسلام على منهج الأجيال الأولى التي تلقّت دين الله ناصعًا صافيًا لا تشوبه شائبة. فكان واقع الثقافة الإسلامية دالاّ على أنّ العربية "جزء" من هذه الثقافة يفقد فاعليّته الحقيقية إن فصلناه عنها، وكان التاريخ دالاّ على هذا الواقع بحسم ووضوح يراه عيانا كلّ من اطلّع على تاريخ هذه الأمّة.

---

41 رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، للأستاذ محمود محمد شاكر.

ونقول كذلك: أيّ تحديد لثقافة عربية مشتركة أو تراث عربي مشترك يستقطب العرب ويحّدد لهم انتماءهم وقيمهم وأهدافهم في الحياة يمكن استخلاصه؟ ماذا نأخذ وماذا نترك؟ وكيف تكون الثقافات المتناقضة التي تفاعل معها العرب عبر التاريخ مصدرا للقيم وأهداف الحياة والانتماء والتي تشكّل المكوّنات الحقيقيّة للهوية ومن دونها لا معنى لهويّة مشتركة ندّعيها؟!

والحقيقة أنّ الحديث عن "ثقافة عربية مشتركة" تكون أحد عناصر الهوية المشتركة هو حديثٌ في الخيالات والأحلام والأوهام، وهو أبعد ما يكون عن الواقع؛ الواقع التاريخي من ناحية، وما يبيّنه من استحالة وجود هذه الثقافة الواضحة المحدّدة للقيم الواحدة والأهداف الواحدة عبر تاريخ العرب، وواقع الهوية من ناحية أخرى، باعتبارها **محور استقطاب قيميّ يرسم أهداف الفرد والجماعة**، ينبغي أن تكون مصدرية القيم فيه واضحة محدّدة لا تشوبها شائبة، ولا تعتورها المتناقضات!

إنّ الثقافة الوحيدة الواضحة الناصعة، الثقافة الأصيلة المحدّدة المعالم التي ظلّلت العرب وغيرهم من الأمم لقرون متطاولة ولا تزال، والتي رفعتهم إلى قمم المجد ورسمت لهم الأهداف الحقيقية التي تليق بالإنسان –كلّ إنسان – هي الثقافة الإسلامية، بما ترتكز عليه من أصول المنهج الإسلامي (الكتاب والسنة)، وباللغة العربية التي تشكّلت بها غير منفصلة عنها. هذه هي الثقافة الحقيقة بالانتماء، والتي يكون الانتماء إليها جزء من هويّة المسلم التي تميّزه عن غيره، وهويّة الأمة الإسلامية الواحدة؛ فهي التي ترسم ملامح هذه الهوية وأهدافها، وتحدّد قيمها الثابتة، وتصوغ العقل المسلم في منهجيّة واضحة ناصعة، وتصبغ تفكيره وسلوكه ومشاعره في هذه الحياة.

سبب إنساني:

ولسبب إنسانيّ كذلك نرفض أن تكون "القومية" هي الهوية وهي الانتماء. إنها "عنصرية" – أيّ عنصريّة – أن يحدّد الإنسان انتماءه وهويته بناءً على عوامل موروثة لم يكن له فيها اختيار؛ لأن "العنصر" في عرف الخامات الطبيعية تقابله "القومية" في عرف المجتمعات البشرية! فالقومي هو الذي ينتمي إلى عنصره ويفضّله على غيره من العناصر (القوميات) الإنسانية! والواقع أن عناصر الهوية القومية (اللغة، العرق، التاريخ المشترك، الثقافة المشتركة) كلّها عناصر "جبرية" وليست عناصر "اختيارية"؛ أي إنّ الإنسان لا يكون مخيّرًا في تحديد تلك الأشياء، وإنما هي أمور لاصقة بالوراثة لم يكن له فيها خيار. فأيّة عنصرية تلك أن تكون العناصر الجبرية التي لا يد للإنسان فيها ولا اختيار هي التي تحدّد انتماءنا إليه ووحدتنا وتماهينا معه؟![42]

إنّ تحديد الانتماء والهوية بناءً على "الكيان الجبري"[43] للإنسان هو هبوطٌ إلى حمأة من الطين والحيوانيّة ليس بعده هبوط! فما الفرق بين ذلك وبين ما تجتمع عليه الحيوانات من رابطة القطيع أو سياج الأرض؟!

---

42 ينطبق الأمر على نزعة "الوطنية" ولكن المقام هو مقام الحديث عن النزعة القومية العربية.

43 الكيان الجبري للإنسان هو الصفات اللاصقة به والتي ليس له فيها خيار، وعناصر الهوية القومية هي عناصر موروثة، سواء كانت وراثة بيولوجية كالأصول العرقية، أو وراثة جيل عن جيل لا يمكن تغييرها كالتاريخ، أو وراثة يتعلمها الإنسان منذ الصغر ويرثها عن أهله ويستطيع اكتساب غيرها كاللغة والثقافة، واللغة العربية والثقافة التي يسمّونها "عربية" في الحالة القومية موروثات لا خيار للمرء فيها..

إنّ الإنسان كائنٌ سامقٌ رفيعٌ كريمٌ يتفرّد عن سائر الكائنات بكيانه "الاختياري"، أي بأنّه حرّ مختار مريدٌ يختار ما شاء من أفكار وأعمال بإذن الله، ومن هنا كان تحديد الهوية والانتماء بناء على **"الكيان الاختياري"** تحديدٌ يليق بقيمة الإنسان الرفيعة السامقة الكريمة، والكيان الاختياري للإنسان هو **عقيدته وسلوكه** الذي هو مقتضيات هذه العقيدة، سواء كان هذا السلوك هو أعمال القلوب الباطنة أو أعمال الجوارح الظاهرة.

إنّ إنسانية الإنسان تقتضي أن يكون تقييمنا له وانتماؤنا إليه وفقًا "لاختياراته" الفكرية ومواقفه العملية، لا أن يكون وفقًا لأمور لا يد له فيها ولا اختيار! وبناء على ذلك فالإنسان المؤمن المسلم الخاضع لله في عقيدته وفي سلوكه هو الإنسان الذي ننتمي إليه بكلّ كياننا الاختياري، ونتوجّه إليه بمشاعر القربى ومشاعر الأخوّة والوحدة، لأن قضية "الإسلام" هي القضية الكبرى بالنسبة للإنسان على وجه الأرض، إنها العبودية لله وحده؛ تحقيق غاية الوجود الإنساني. وكونها القيمة الأعلى والأسمى والأكبر للوجود الإنساني تجعلها – بداهةً – القيمة التي تحدّد الانتماء وتحدد الهوية!

إنّ دين الله ليس مجرّد شعور قلبي لا دليل على صحّته تصحبه بعض التوجيهات والأخلاق والشعائر! وليس أمرًا "جبريًّا" نرثه من الآباء والأجداد! تلك الصورة الباهتة البدائية ليست هي دين الله على وجه الإطلاق! إنه منهج الحياة بالنسبة للإنسان، والذي وضعه له هو خالقه، المنهج الذي من دون الإيمان به واتباعه يعطّل الإنسان غاية وجوده على هذه الأرض. والإنسان مع ذلك "مخيّر" في اتباعه أو التنكّب عن ذلك، فهي قضية عظيمة جدًا، بل أعظم قضية يجب أن تشغل بال الإنسان، إذا عرفنا أن هذه الدنيا هي دار اختبار وليست دار قرار، وأن الدار الآخرة هي القرار الأخير لكل البشر، وأنها هي الحياة الحقيقية للبشر، وليست الدنيا مطلوبة لذاتها، تلك المفاهيم هي التي تصحّح الميزان الذي يقوّم به الإنسان قضايا الحياة؛ فالقضايا "الأرضية" المرتبطة بالدنيا وحدها أقل قيمة – من ناحية موضوعية بحتة – من القضايا المرتبطة بالآخرة؛ لأن قيمة الآخرة أكبر من قيمة الدنيا، بل لا مجال للمقارنة، فما بالُنا بالأساس الذي يحدّد موقف الإنسان في عالم الآخرة وهو "العبودية لله وحده"؟

بهذه النظرة ينبغي أن يرى الإنسان – كلّ إنسان – قضية "العبادة" على أنها أهمّ قضية في الوجود: ﴿**وما خلقتُ الجنّ والإنس إلا ليعبدون**﴾ (**الذاريات: 5**). وأنها قضية "اختيارية": ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾ (**الشمس: 7 – 8**). وهذه العبادة لا يمكن أن تتحقّق خارج دين الله الأخير الذي ارتضاه للبشر؛ لأن العبادة معناها الطاعة، وطاعة الله تكون باتباع منهجه للحياة وهو – في صورته الأخيرة – الإسلام: ﴿**وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله**﴾ (**النساء: 64**)، ﴿**وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون**﴾ (**سبأ: 28**). والإسلام هو الخضوع لله عزّ وجلّ، وكما يخضع الكونُ كلّه لله عزّ وجلّ بإرادة الله، فكذلك: أليس من الأحرى بهذا الإنسان أن يكون متناسقًا مع حركة الكون بدلا من أن يكون متنافرًا معها؟

ومن هنا فالإسلام تصورٌ فسيحٌ لا يُدخل الإنسان إلى دوائر "جبرية" مغلقة يتعامل من خلالها ويعيش، بل يُطلقه إلى فضاء رحبٍ يشعر فيه المسلم بأنّه في توازن تامّ مع حركة الكون الخاضعة لله حينما يخضع هو لله وينتمي إليه، ويحدد بناء على ذلك انتماءه للناس وفق ما اختاروه هم من انتماء لله بالعبودية له وحده، أو تنكّبٍ عن عبادته وانتماء إلى الأهواء

ومشاغل الدنيا. فإن كانوا قد عرفوا وضعهم اللائق بهم بأن يكونوا خاضعين لمنهج الله خالقِهم، حينها يكون هؤلاء باختيارهم النبيل غير المستكبر عن عبادة الله هم الناس الذين ينتمي إليهم المسلم، على اختلاف قومياتهم وأوطانهم، إذ يرتفع المسلم عن كل عامل أرضيّ جبريّ إلى عوامل الاختيار المتمثلة بالعبودية لله عزّ وجلّ وحده!

الهوية القومية والشرعيّة:

يحلو لبعض القوميّن العرب أن يلبس الحقّ بالباطل، وأن يستدعي النصوص الشرعيّة للتدليل على صحّة منهجه وسلامة ما يدعو إليه من قوميّة! فيقول القوميّ: إنّ العربية عنصر أصيل جعله القرآن أساسا في هذا الدين لقوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ (**يوسف: 2**). والواقع أن الآية لا تدلّ على كون العربية هويّة للمسلم، أو أنّ الدعوة القوميّة لها أصل شرعيّ، وقد بيّنا فيما سبق مقام العربية في الإسلام؛ فهي جزء أصيل من الثقافة الإسلامية، ولكنّها لا تشكّل بذاتها محور استقطاب وانتماء. والآية التي يستدلّون بها لا تعني اختصاص العرب بهذا الدين كما يريد القوميّون حتى يجعلوا من العربية عنصرا في الهوية! وإنّما تعني نزول كتاب الله عزّ وجلّ باللغة العربية التي هي لغة القوم الذين نزل عليهم هذا القرآن. وهذا الدين قد أرسل الله به رسوله صلى الله عليه وسلّم إلى جميع البشر، وليس مختصّا في فئة قومية من دون الناس، وقد قال تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾ (**الأعراف: 158**). وقال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ (الأنبياء: **107**). وقال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾ (سبأ: **28**).

قد تقدّمَ معنا في الفصل الأول والثاني ما يكفي من أدلة شرعيّة تبيّن لنا مخالفة الهوية القومية لقطعيّات الشرع الحنيف، إذ هي تمسّ بركن من أركان التوحيد، وهو ركن "الولاء"، ولكنّنا نودّ أن نؤكّد هذا المعنى من خلال نصوص شديدة الارتباط بموضوع التجمّع على أساس "القومية" والانتماء للناس بناء عليها.

يقول تعالى: ﴿**قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**﴾ (**الممتحنة: 4**).

والسياق واضح أشد الوضوح في أنّ معيار "الانتماء" هو الإيمان، فكونهم من قومهم وأهلهم لم يؤثّر في الانتماء لهم، بل كانت قضية "**الإيمان بالله وحدة**" أو "**عبادة الله وحده دون شريك**" هي معيار الانتماء والولاء والبراء، فقد تبرّؤوا منهم حين عبدوا غير الله، لأنّهم خرجوا من الاتصاف بالإيمان، ذلك أن **الإيمان** المذكور في الآية هو **عبادة الله وحده دون شريك**، وهو نفسه **الإسلام العام**[44]. فأين هم القوميّون العرب "المسلمون" اليوم من هذه المعاني حين يقولون: "إن القومية العربية هي

---

44 اقرأ – إن شئت – كتاب "أصل الدين عند الأئمة وسلف الأمة" لفضيلة الشيخ عبد المجيد بن يوسف الشاذلي.

أساس التجمّع والانتماء، بغضّ النظر عن الدين والطائفة والمعتقدات! فالذي يجمعنا ويوحّدنا ويجعلنا أمّة واحدة هو كوننا "عربا" وليست معتقداتنا أساس للتجمّع والانتماء والهوية!" أين هم من معاني الآية الكريمة حين يردّدون مثل هذه الأقوال؟ بل إنّ مَطْلَعَ الآية يعلّمنا أن هذا الموقف "أسوة" لنا، وليست الآية مجرّد سرد تاريخيّ لحكاية سيدنا إبراهيم مع قومه! فعلينا أن نتأسى بهم ونوالي ونعادي على أساس الإسلام، وننتمي للناس ونتآخى معهم على أساس الإسلام، لا على أساس قوميّاتهم ولغاتهم!

ويقول تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ (الصف: 14)**.

فها هو موقف المسيح عليه السلام وأنصاره من قومه، لقد انقسموا إلى "أنصار" مؤمنين، و"أعداء" كافرين، على أساس موقفهم من الإسلام، والله سبحانه يأمرنا أن نقتدي بموقفهم في ذلك، فرغم أن بني إسرائيل هم قومه فإنّ كونهم على نفس "القومية" لم يشفع لهم حتى ينتمي إليهم ويكوّن أمة على أساس الهوية "القومية" معهم! بل تبرّأ منهم ولم ينتمِ إليهم لما رفضوا الإسلام الذي دعاهم إليه، فالموقف من الإسلام هو الذي يحدّد انتماءنا إلى الناس من عدمه، وليس مجرد وجود إنسان يحمل قوميّتي يحتّمُ انتمائي إليه، وأعتباره منّي وأنا منه، بل موقفه العقديّ والعمليّ هو معيار انتمائي إليه من عدمه، وهنا تكمن إنسانية الإنسان!

وفي الحديث الشريف: **"يا أيها الناس: ألا إنّ ربّكم واحد، وإنّ أباكم واحد، ألا لا فضل لعربيّ على أعجميّ ولا لعجميّ على عربيّ ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر، إلا بالتقوى، أبلغت؟ قالوا: بلغ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم" (الوادعي، الصحيح المسند، حديث صحيح)**.

فمعيار المفاضلة بين الناس بناء على هذا الحديث هو "التقوى"، وليست الأنساب والقوميات والجنسيات هي التي تحدد درجات الناس عندنا، ولا هي التي تحدد انتماءنا إليهم. ومن جميل ما ورد في هذا الحديث هو قوله صلّى الله عليه وسلّم: **"وإن أباكم واحد"**، فهو يردّهم إلى أصلهم الإنساني الواحد، ولا تتحقّق إنسانيّتهم إلا بأن يكون الكيان الاختياري للإنسان هو معيار التعامل مع الناس والمفاضلة بينهم والانتماء إليهم!

وفي هذا القدر من النصوص كفاية لمريد الحقّ، بالإضافة إلى ما قدّمناه في الفصول السابقة..

وفي هذا القدر كفاية لبيان زيف الدعوة إلى الهوية القومية، والاجتماع على أساس العروبة، لِما تحمله هذه الدعوة من سقطات موضوعية كبيرة، وحياد عن إنسانية الإنسان، ومخالفة للعقيدة الإسلامية وقطعيّات الشرع الحنيف.

ومن ثمّ علينا أن ننتقل للحديث عن "الهوية الوطنية"، وهي الأخطرُ اليوم والأكثر انتشارا وتطبيقا في عموم العالم الإسلامي، فالدعوة القومية لاقتْ من الفشل على أرض الواقع ما يكفي لتهافتها تطبيقيّا بعد تهافتها معرفيّا، ولم تنجحْ في

إحداث "النهضة" في العالم العربي[45]، بل زادت الشعوب خبالاً وتأخّرا، لأنّها نزعة عصبيّة لا تستند إلى أي رصيد حضاري يمكن الاتكاء عليه في إحداث النهضة الحقيقيّة لهذه الأمة.

45 كما أنّ الوطنية والقطرية لم تنجح في إحداث النهضة كذلك.

الهوية الوطنية وتهافتها؛ شرعيّا وموضوعيّا

- **القضايا التي نستهدف تحريرها وتوضيحها في هذا الفصل هي:**

– بيان المعنى الحقيقي لمفهوم **"الوطنية"** المعاصر[46]؛ بأنّها ليست مجرّد **"حبّ الوطن"** الذي هو حاجة فطرية طبيعية، ولا مجرّد الدفاع عن الأرض، بل تتضمّن – في أساسها – مفاهيم مناقضة أو مخالفة للمفاهيم الشرعية الإسلامية، سوف نبيّنها في سياق الفصل. وأن رفضنا لهذا المفهوم المعاصر للوطنية لا يعني رفضنا لحبّ الوطن، أو الدفاع عن الأرض والمال والعرض.

– بيان عدم جواز دخول الوطنية في مفهوم **"الهوية"** عند المسلم؛ بسبب ما تحدثه من غبش في مفهوم **"الولاء"**؛ سواء على المستوى الشعوري أو السلوكي، وما تتسبّب به من إضعاف فاعليّة الهوية الإسلامية كمحور استقطاب وحيد للأمة وعامل رئيسيّ في وحدتها؛ حيث يؤثّر مفهوم الوطنية المعاصر في زيادة عوامل تفريق الأمة إلى هويات متعددة وكيانات متفرّقة ضعيفة وهزيلة.

– رفع أهمّ الالتباسات التي أحدثها بعض المفكرين (من المدرسة "التوفيقية" على وجه الخصوص) في موضوع الوطنية وعلاقتها بالإسلام.

ولنبدأ بتعريف الوطنيّة:

- **تعريف الوطنية:**

مفهوم "الوطنية" مفهوم معاصر لم يرد في تراث المسلمين قبل التاريخ الحديث، ولا يشكّ أحد أن هذا المفهوم قد دلف إلى العالم الإسلامي والعربي مع تفكّك الدولة الإسلامية (العثمانية) ثم انهيارها وتفتيتها، وترسّخَ في مرحلة "الاستعمار" وما بعدها على النحو الذي سقناه في فصل "الخلفية التاريخية لانحراف مفهوم الهوية". فما هو المفهوم المعاصر الحقيقي للوطنية؟

تعدّدت تعريفات الوطنية على النحو التالي[47]:

أ– تعرّف الموسوعة العربية العالمية الوطنية بأنها: تعبير قويم يعني حب الفرد وإخلاصه لوطنه الذي يشمل الانتماء إلى الأرض والناس والعادات والتقاليد، والفخر بالتاريخ، والتفاني في خدمة الوطن.

ب– وقيل إنها: الشعور الجمعي الذي يربط بين أبناء الجماعة، ويملأ قلوبهم بحب الوطن والجماعة، والاستعداد لبذل أقصى الجهد في سبيل بنائهما، والاستعداد للموت دفاعًا عنهما.

ج– وعرفها البعض بأنها: تعني التعبير الصادق عن الانتماء للوطن بالقول والعمل، والإسهام الفعال في الدفاع عن الوطن ضد أية تحديات خارجية، والإسهام في تقدمه ورفعته وإعلاء شأنه بين الأوطان. وعليه فإن مقياس الوطنية هو: مقدار

46 ولا يوجد في الحقيقة مفهوم قديم للوطنية عند المسلمين، فلا الكلمة بتصريفها مذكورة، ولا مفهومها المعاصر كان موجودا!

47 تم النقل من بحث بعنوان "مفهوم الوطنية والتأصيل الشرعي"، وهو عبارة عن مشاركة في ندوة: الانتماء الوطني في التعليم العام رؤى وتطلعات، بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ربيع الأول 1430 – 1431، أ.د حسن السيد حامد خطّاب. (نسخة موقع صيد الفوائد). وقد توصّل الباحث إلى نتائج مختلفة تماما عن بحثنا هذا، بل قد كانت له طريقة مختلفة في البحث وأهداف مختلفة كذلك.

الرصيد الوطني الذي يُسجله كل مواطن من أجل الوطن. بمعنى: أنّ الفرد لا يكتسب الوطنية إلا بالعمل لصالح الوطن والجماعة معًا[48].

فالوطنية مفهومٌ مبنيّ على واقع معيّن، هذا الواقع هو الدولة القطرية التي يرتبط فيها الناس بعضهم ببعض برابط "الوطنية" أو "المواطنة"، بغضّ النظر عن معتقداتهم ومللهم وأفكارهم ووجهات نظرهم في الحياة. ففي التعريف "ب" يقول عنها إنها: "الشعور الجمعي الذي يربط بين أبناء الجماعة، ويملأ قلوبهم بحبّ الوطن والجماعة"، فمحور الاستقطاب للجماعة وفق هذا التعريف هو "الوطن". وفي التعريف "ج" يقول إنها "تعني التعبير الصادق عن الانتماء للوطن بالقول والعمل"، فمعيار الانتماء هو "الوطن"، والمنتمون إليه هم "الوطنيّون" ومحور استقطابهم هو هذه الوطنية التي تجمعهم.

والقضيّة أنّ هذه المعاني كلّها مرتبطة بمفاهيم حديثة نشأت في أوروبا في العصر الحديث ودخلت إلى العالم الإسلامي على النحو الذي بيّنّاه في فصل "الخلفية التاريخية لانحراف مفهوم الهوية"، فالعودة إلى النصوص الشرعية من القرآن والسنة، وإلى السيرة النبويّة للدلالة على الأصل الشرعي لمفهوم "الوطنية" هي عملية "اعتسافية" تهدف إلى التوفيق بين هذا المفهوم وبين المفاهيم الشرعية، مع أنّ المسلم لم يطالب بأن يجد للواقع – أيّا كان – متّكأ من الأدلة الشرعية، بل هو مطالب بأن يقيس كل "واقع" مُحْدَثٍ بالمقياس الشرعي بشكل موضوعي؛ أي بفهم الواقع على ما هو عليه، بالمعاني التي تشكّل بها، ثم العودة إلى النصوص الشرعية لقياس "شرعيّة" هذا الواقع من عدمها، ويكون وضعه الشرعي واحدا من خمسة حالات: واجبٌ أو حرامٌ أو مكروهٌ أو مندوبٌ أو مباح. ولذا فإنّنا في موضوع الوطنية علينا أوّلا أن ننظر إلى واقعها المعاصر – مفهوما وتطبيقا –، فنستخلص معانيها كما هي على الحقيقة في الواقع، وكما هي عند القوم الذين ابتدعوها ونشأت عندهم، ثم نقيس هذه المعاني بمقياس "الشرع" ونتبيّن حينها توافقها مع الشرع أو مجافاتها وتناقضها معه. وهذه هي الطريقة الشرعية للحكم على واقع معيّن استجدّ في حياتنا، أما الطريقة "التوفيقيّة" في البحث والتي تقترب إلى أن تكون "إعطاء شرعية" للواقع أكثر ممّا هي "قياسٌ لشرعيّته"، أمّا هذه الطريقة ففيها مجافاة لما تقرّر عند علماء المسلمين من طرق الاجتهاد الشرعي منذ عصر الأئمة المجتهدين.

ونحن في بحثنا هذا ننتهج طريقة رصد المعاني المتشكّلة في الواقع المعاصر – مفهوما وتطبيقا – وتجميعها، ثمّ قياسها بالمقياس الشرعي، فإنْ كانت مخالفة للشرع بيّنا ذلك بالأدلة القاطعة، وإنْ كانت غير مخالفة بيّنا ذلك. وإذا أردنا استخلاص المعاني التي تكرّرت وترسّخت في الواقع المعاصر حول مفهوم "الوطنية"، نخرج بأسس ومحاور تشكّل صلب مفهوم الوطنية؛ بحيث إذا ما اختفت هذه الأسس والمحاور لم يعد للوطنية حقيقة محسوسة غير العبارة! ونخرج بمعانٍ أخرى ارتبطت بالوطنية من دون أن تكون محورها الأساسي وإنما هي توابع لها.

- **معاني الوطنية في الواقع المعاصر:**

– المعنى الأبرز للوطنية في الواقع المعاصر أنها محور انتماء وولاء بين جماعة من الناس، يجمعهم وطن واحد، يحملون آمالا وأهدافا واحدة، فالوطن "هويّة" تشكّل محور استقطاب لهم، بغضّ النظر عن معتقداتهم ومللهم وطوائفهم ووجهات نظرهم في

---

48 إلى هنا ينتهي النقل من بحث "مفهوم الوطنية والتأصيل الشرعي".

الحياة.

- والوطنيّة تأتي بمعنى وجود "واجب وطني"، على جميع المواطنين في الدولة "القطرية" الالتزام به، ومعايير هذا الواجب الوطني تحدّدها الجماعة البشرية التي تعيش في هذا القطر أو ذاك[49]، وهذا معنى متكرّر في مقولات النشطاء "الوطنيّين" وفي كتابات المفكرين حتى "الإسلاميّين" منهم! حيث يتم التفريق بين "الواجب الديني" وبين "الواجب الوطني" في الكثير من خطاباتهم، فالأول واجب يحتّمه الشرع، والآخر واجب تحتّمه الوطنية أو المواطنة!

- وتندرج تحت مفهوم الوطنية معاني حبّ الوطن، والشوق والحنين إليه، وما يقتضيه هذا الحبّ والشوق والحنين من مشاعر، وما يدفع إليه من أعمال يقوم بها المرءُ كزيارة الوطن إنْ تغرّب عنه، أو السعي للعودة إليه والسكن فيه، والدفاع عنه من الأخطار المحدقة فيه، ومن الأعداء المتربّصين به ودفع المحتلّين عنه.

هذه هي المعاني الأبرز لمفهوم "الوطنية"، والتي نجدها حاضرة بقوّة في الحياة المعاصرة بحيث لا مجال إلى إنكارها، وسوف نعالج كل واحدة منها على حِدَةٍ وفقًا للمنهج الذي بيّناه في هذا الفصل.

49 في الواقع تحدده الجماعة من البشر التي تهيمن على مجريات الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في هذا القطر أو ذاك.

* **رفع الالتباس بين مفهوم "الوطن" ومفهوم "الدولة" أو "الكيان السياسي":**

ونحبّ أن نشير إلى مغالطة عميقة تدور حول مفهوم "الوطن" عند دعاة الوطنيّة؛ فالوطن عندهم هو ذلك الكيان السياسي الذي تقوم فوقه دولة لها حدود مرسومة دون الالتفات لمن رسم هذه الحدود! فهناك الوطن المصري والوطنية المصرية، والوطن العراقي والوطنية العراقية، والوطن السوري والوطنية السورية، والوطن الفلسطيني والوطنية الفلسطينية، والوطن اللبناني والوطنية اللبنانية.. إلخ ولكن حينما عدنا إلى المعاجم العربية وجدنا الآتي:

- الوَطَنُ: المَنْزِلُ تقيم به، وهو مَوْطِنُ الإنسان ومحلّه (لسان العرب).
- الوَطَنُ، مُحَرَّكَةً ويُسَكَّنُ: مَنْزِلُ الإِقامَةِ، ومَرْبَطُ البَقَرِ والغَنَمِ ج: أوطانٌ. وَوَطَنَ به يَطِنُ وأوْطَنَ: أقامَ. وأوْطَنَهُ وَوَطَّنَهُ واسْتَوْطَنَهُ: اتَّخَذَهُ وَطَنًا (القاموس المحيط).

فالوطن هو محلّ الإقامة؛ أي المكان الذي نقيم فيه ونستوطنه، وهذا ينطبق على المدينة أو القرية أو المنطقة التي يسكن فيها الإنسان ويقيم، وكل ما لم يُقِمْ فيه ويستوطنه ليس بوطن بالنسبة إليه، ولا فرق بين أن يكون هذا المكان الذي لم يقم به هو مدينة واقعة داخل حدود الدولة التي تحكم بلاده أو مدينة تقع خارج حدود تلك الدولة. بل إن الواقع يدلّنا في أحيان كثيرة على إنسان نشأ متنقلا في منطقة معينة، ثم قامت الاتفاقيّات الدولية برسم حدود المنطقة التي كانت وطنا له وتقسيمها إلى قسمين؛ قسم يقع في الدولة "أ" وقسم يقع في الدولة "ب"، فهل مجرد التقسيم وبقائه في الدولة "أ" يعني أن المنطقة التي عاش فيها في الدولة "ب" لم تعد وطنه! وأن الأراضي التي تبعد عنه مئات الأميال في الدولة "أ" أصبحت وطنا له لمجرّد أنّها واقعة في "الدولة" التي تحكم بلاده! إن الدلالة اللغوية والموضوعية لكلمة "وطن" تبيّن خطأ سحب مفهوم الكلمة على الكيان السياسي الذي تشكّل بفعل عوامل مختلفة على أرض تم رسم حدودها واعتبارها "دولة"!

وإسقاط مفهوم "الوطن" على "الكيان السياسي" الذي يحكم البلاد، أو على "الدولة" ذات الحدود المرسومة هو سقوط موضوعي وقع فيه دعاة الوطنيّة، وهو كذلك سقوط على مستوى القيم؛ فالذي رسم حدود معظم الكيانات السياسية وأراد لها أن تكون "أوطانا" ودولا ذات انتماءات خاصة هو الكافر المحتلّ الذي استباح أرض المسلمين، وخصوصا بعد انهيار الدولة العثمانية، التي كانت تجمع أراضي هذه الدول تحت سيادة كيان سياسي واحد، ولم تعرف الأمّة الإسلامية طوال تاريخها فكرة أن يكون لكل إقليم أو منطقة من مناطق الدولة الإسلامية استقلال وانتماء خاص، وأن يكون له كيان سياسي يصطبغ باسمه، مثل: العراق، يكون اسمه "دولة العراق"، وسكانه هم العراقيّون، ولهم انتماء لوطنهم هذا الذي هو العراق. وكذلك: مصر، يكون اسمها "دولة مصر"، وسكانها هم المصريّون، ولهم انتماء خاص لوطنهم هذا الذي هو مصر. فالذي يعيش في "الموصل" لا يسكن كلّ أنحاء العراق حتى تدعى "وطنًا" له، وكذلك "الطنطاوي" (نسبة إلى مدينة طنطا في مصر) لا يسكن كلّ أنحاء مصر حتى تدعى "وطنا" له! لم تعرف الأمة الإسلامية طوال تاريخها انصراف مفهوم "الشعب" أو "الأمة" إلى حيّز جغرافي مرسوم بحدود اصطناعية حتى لو روعيَت فيه اعتبارات البيئة والتسميات التاريخية للمناطق واللهجات والعادات والتقاليد التي تتميّز فيها كلّ منطقة. والواقع أنّ فكرة الانتماء الوطني – باعتبار الوطن كيانا سياسيا مرسوما على مساحة جغرافية – هي فكرة حديثة تشكّلت في عهود الاحتلال في التاريخ الحديث، تأثّرا بثقافة المحتلّ التي حملت مفاهيم

الدولة القطرية والانتماء الوطني. ولعلّ ما يذكره الدكتور عزمي بشارة[50] في مقال له بعنوان **"بيان قومي ديمقراطي"** دليل واضح على اعتراف دعاة الوطنية والقومية أنفسهم بحداثة فكرة "الهوية الوطنية"؛ حيث نشأت في ظلال الواقع الاحتلالي الحديث، يقول الدكتور عزمي: "وشعب فلسطين العربي هو نتاج التفاعل بين الحضارات في أرض فلسطين. وهو شعب الفلاحين وشعب المدن **الذي بلور هويته الوطنية في ظل الصراع مع الاستعمار والصهيونية، هذا الصراع الذي أفرزه التقسيم الاستعماري لبلاد الشام**"[51]. فالدكتور عزمي يقرّ بحداثة فكرة الهوية الوطنية، التي تشكّل فيها الرابطة الوطنية "هوية" لدى مجموعة من البشر، ويقرّ كذلك بأنّ واقع التقسيم الاستعماري هو الذي أثّر في بلورة هذه الهوية ونشأتها؛ ولذا فهي ليست هويّة أصيلة في الأمة الإسلامية، بل هي هويّة دخيلة تشكّلت بفعل عوامل مختلفة تمّ ذكرها سابقًا[52].

بل إنّ الواقع يدلّ على أنّ بعض المناطق أو الولايات تمّ تقسيمها إلى أكثر من "قطر" وأكثر من "وطن"؛ كالشام التي قُسّمت إلى سوريا ولبنان والأردن وفلسطين، والذي قام بتحديد هذه التقسيمات ورسم حدودها هو الكافر المحتل بُعَيْدَ سقوط الدولة العثمانية عن طريق اتفاقيّاته ومعاهداته، وأبرزها معاهدة "سايكس-بيكو". فواقع الدعوة إلى الوطنية (باعتبار أن هذه الدول والكيانات السياسية هي "أوطان") أنها **دعوة إلى إضفاء الشرعيّة على تقسيمات أعداء الله الكفّار في بلاد المسلمين!** فالتاريخ يبيّن لنا أن الاستعمار المباشر لم يعد له مكان في العالم الإسلامي والعربي، لأنه يذلّ "الكبرياء القومي"، فتمّت الاستعاضة عنه بفكرة الاستعمار غير المباشر، والذي يكون عن طريق تفتيت وحدة المسلمين وانتمائهم الواحد إلى كيانات شتّى وانتماءات شتّى، بُغية السيطرة عليهم بواسطة حكّام عملاء يتم نصبهم وتوطيد العلاقات معهم، فاللقيمات الصغيرة سهلة الازدراد بعكس اللقمة الكبيرة! وقد بيّنا هذا السياق التاريخي النكد لتفتيت وحدة المسلمين ومحاولة طمس الهوية الإسلاميّة في فصل سابق، ونقتبس بيانا جيّدا حول ذلك للشيخ الدكتور غازي التوبة من مقال له بعنوان **"الأمة الإسلامية وأخطار القطريّة عليها"** إذ يقول:

"لكن وحدة الأمة تتعرض الآن إلى أخطر تهديد على مدار القرون الماضية جميعها، وهذا التهديد جاء من الكيانات القطرية التي تسعى إلى تأسيس ثقافي مستقل بها، مما سيؤدي إلى تقسيم الأمة الواحدة إلى أمم متعددة مختلفة، ولكن هذا التأسيس الثقافي للقطرية مرّ بمرحلتين: الأولى: مرحلة تقسيم الأمة الواحدة إلى أمتين: عربية وتركية وقد جاء ذلك على يد دولة الاتحاد والترقي في عام 1908م من الجهة التركية وعلى يد الثورة العربية الكبرى عام 1916م من الجهة العربية، ولم تستطع الثورة العربية أن تجمعّ ما كان متفرقاً، بل فرّقت ما كان مجموعاً في اتفاقية سايكس-بيكو وغيرها، ثم جاء التنظير القومي على يد ساطع الحصري ليرسّخ القطرية ليس لأنه أراد ذلك، بل لأنه جعل الأمة تقوم على عنصري اللغة والتاريخ واستبعد الدين من عناصر تكوين الأمة، وهو في ذلك كان متابعاً النظرية الألمانية، ولكنه نسي أننا لا نستطيع أن نفهم واقع الأمة التي تقطن العالم العربي إلا بالإسلام لأن الإسلام دخل كل تفصيل حياتها الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية

---

50 مفكّر قومي معاصر له حضور بارز في المشهد السياسي والاجتماعي القومي العلماني.

51 من مقال "بيان قومي ديمقراطي"، منشور على موقع التجمّع الوطني الديمقراطي.

52 أنظر مقال "الخلفية التاريخية لانحراف مفهوم الهوية".

إلخ... وأننا إذا أردنا أن ننتقل بهذه الأمة من واقع التجزئة إلى الوحدة فلابدّ من الاعتراف بدور الإسلام في بناء الأمة وتفعيل عناصره، وهو ما لم تقم به القيادات القومية فكان بروز القطرية وترسخها، وصار الظن عند عامة الناس بأن التجزئة هي الأصل والوحدة هي الطارئة، مع أن العكس هو الصحيح. الثانية: مرحلة التأسيس الثقافي المستقل لكل قطر: اتخذ دعاة القطرية عدم التقدم باتجاه الوحدة خلال القرن الماضي حجة من أجل اعتبار الوحدة خيالاً ووهماً، واتخذوا ذلك أيضاً ذريعة من أجل الترويج للقطرية والتأسيس الثقافي لها والذي تجلّى في عدة عوامل، منها: طباعة كتب المؤرخين الذين تناولوا تاريخ القطر، وإبراز الرحالة الذين مرّوا به وكتبوا عنه، وتعظيم رموز الأدب والشعر المرتبطين به، وتزكية تاريخه السابق على الإسلام كالتاريخ الفرعوني والبابلي والكلداني والآشوري والبربري والسيرياني والفينيقي وإنشاء مراكز ومؤسسات ترعى ذلك التاريخ إلخ... ويرافق كل ذلك الاهتمام باللغة العامية والاهتمام بالشعر الشعبي والترويج لشعرائه ودواوينهم، والاهتمام بالعادات والتقاليد والفولكلور الشعبي الخاص بذلك القطر وإنشاء المتاحف الخاصة به إلخ... ليس من شك بأن هذا التأسيس الثقافي المستقل لكل قطر على حدة يتقاطع مع الوحدة الثقافية التي عرفتها الأمة على مدار تاريخها السابق، وهو في حال استمراره ونجاحه فإنه سيؤدي إلى أخطر ما واجهته أمتنا على مدار تاريخها السابق وهو تحويل الأمة الواحدة إلى أمم متعددة"[53].

ويقول أيضا في مقال له بعنوان **"تهديد هويّة أمّتنا قديما وحديثا"**: "والأخطر في قضية القطرية هو تحويل هذه الأقطار إلى أمم مستقلة، وهذا ما يعمل عليه الغرب ودعاة القطرية، فهم يؤصلون لهذه القطرية في مختلف المجالات الثقافية والاقتصادية والسياسية... إلخ، لتصبح هناك أمة أردنية وهناك أمة عراقية وهناك أمة مصرية، وهناك أمة سورية... إلخ. ولتصبح الحدود القائمة بين هذه الدول حدوداً نهائية، كالحدود بين دولتي فرنسا وألمانيا مثلاً، وهذا ما تراهن عليه المخطّطات الخارجية من أجل إنهاء وجود هذه الأمة الواحدة"[54].

فواقع الأمر أن تسمية هذه الكيانات "أوطانا"، والدعوة إلى ترسيخ الانتماء إليها عند المسلمين هو إضفاء للشرعيّة عليها، وهي أساسا ساقطة الشرعية؛ فالله سبحانه وتعالى نهى عن التفرّق وكذلك رسوله الكريم صلّى الله عليه وسلّم، كما مرّ معنا في الفصل الأول من الكتاب. وهذه الكيانات إنما هي من صنع المحتلّ الكافر عدوّ الأمة والعامل على تفريقها وإفشال نهضتها، فكيف يجوز للمسلم أن يضفي الشرعيّة عليها مع العلم بأنّه لا شرعيّة لها كما تدلّ النصوص الشرعيّة الحاسمة[55]؟! وقد يكون من يقطن خارج حدود الدولة التي نسكن فيها شخص "مسلم"، وداخل هذه الحدود يقطن "كافر"، فهل ننتمي إلى كلّ من يقطن داخل هذه الحدود التي رسمها أعداء الأمة لمجرد أنه ولد داخلها، بغضّ النظر عن معتقده ودينه، مسلما كان أم كافرا، ونفضّله في الانتماء على المسلم الذي يقطن خارجها؟! أي خبّل يبرّر هذا الأمر؟! وأيّة انتكاسة حلّت بالمسلم الذي يحمل هذا المعيار الزائف؟! بل حتى لو حيّدنا عامل الدين وتعاملنا بمصطلحات من يتحدّث عن الثقافة الواحدة والعادات والتقاليد

---

53 من مقال بعنوان "الأمة الإسلامية وأخطار القطريّة عليها" للشيخ غازي التوبة.

54 غازي التوبة؛ من مقال بعنوان "تهديد هويّة أمّتنا قديما وحديثا"، منشور على موقع منبر الأمة الإسلامية للدراسات والبحوث.

55 فإن قيل إنها واقع مفروض علينا ولا حيلة لنا بتغييره الآن، قيل: إن هناك فرق كبير بين عدم الرضا عنها لأنها مخالفة للشرع، وبين الدعوة التي تسبل ثوب الشرعية عليها! فعدم القدرة على تغييرها لا يبرّر ولا يفسّر العمل على ترسيخ شرعيّتها!

واللهجات الواحدة التي تكون في دولة معينة وبناء عليها تمّ رسم الحدود، نقول لهؤلاء: إنّ الواقع يدلّنا على أنّ الكثير من الناس الذين يقطنون في دولة معيّنة تكون عاداتهم وتقاليدهم وثقافتهم أقرب إلى سكان دولة أخرى من سكان نفس الدولة، وهذا واقع مشاهد في بعض المناطق، حيث تتقارب اللهجات والعادات والتقاليد بل والأنساب[56] في المناطق الحدوديّة رغم فاصل الحدود، وتتباعد وتختلف مع سكان آخرين رغم أنهم يسكنون داخل حدود نفس الدولة، ولكنّهم بعيدون جغرافيّا وثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم مغايرة. فعلى الرغم من أنّ راسم حدود هذه الكيانات – التي سميّت دولا وأوطانا – راعى وجود بعض الفوارق في اللهجات التي تتميّز بها مناطق معيّنة وتختلف عن غيرها، وبعض الفوارق في العادات والتقاليد، نقول: على الرغم من مراعاة المحتل الراسم للحدود لهذه الفوارق، وسعيه الدؤوب إلى تعميقها وتجذيرها في الأمة الإسلامية فإنّ الواقع لا زال ينضح بأمثلة كثيرة تبيّن خطأ هذه التقسيمات باعتبارات الثقافة واللهجات والعادات والتقاليد، فضلا عن سقوط الشرعيّة عنها كما بيّنا سابقًا.

والخلاصة أنّ مصطلح "الوطنيّة" وإنْ كانَ مشتقّا من كلمة "وطن"، فمعناه الحقيقي وواقعه التطبيقي مغايران تماما لمدلول كلمة "الوطن"، ويحمّلانها ما لا تدلّ عليه لغويّا.

* **رفع الالتباس بين مفهوم "الوطنيّة" و"حبّ الوطن":**

وهناك من يظنّ أن الوطنيّة هي مجرد "حبّ الوطن"، أو أنّ محبّ وطنه هو بالضرورة "وطنيّ"، والحقيقة أنّه قد جانب الصواب في ظنّه هذا، وذلك لاعتبارين أساسيّين:

– **الاعتبار الأول:** هو أنّ الوطنيّة – كما بيّنّا سابقا – تحمل في الواقع أكثر من معنى؛ سواء كان في واقع مفهومها كمحور استقطاب وولاء بين جماعة من البشر يجمعهم وطن واحد، أو مفهومها بأنّها تفرض واجبات ومحظورات معيّنة على المواطن[57]، أو كان في واقع تطبيقها المعاصر من حيث هي نزعة تتّجه إلى اعتبار "الدول" القطرية التي رسمها المحتلّ "أوطانا"، فهذه المعاني كلّها متضمّنة في مفهوم الوطنيّة، على مستوى الفكر والواقع، فلا يصحّ أن نظنّ للحظة أنّها تعني مجرد "حبّ الوطن" فنقبلها! فلسنا نحن من نقرر ما يدلّ عليه المصطلح في الواقع، وإنّما طبيعة هذا المصطلح كما هو في الواقع، وكما نشأ عند من ابتدعه، هي التي تحدّد مفهومه، وطبقًا لذلك تتحدّد شرعيّته من عدمها، وقبولنا له من عدمه.

– **والاعتبار الثاني:** أنّ حبّ الوطن ليس هو "جوهر" النزعة الوطنيّة كما نشأت واستقرّت وتشكّلت مقتضياتها الواقعية – في المفهوم والتطبيق –، وإنما يُعتبر "حب الوطن" من "التوابع" لنزعة الوطنيّة، لأنّه ليس عاملا رئيسيّا في نشأتها، ولأنّ النزعة الوطنية غير متميّزة بحب الوطن؛ فهو ليس من خصائصها، وإنّما حبّ الوطن دافع فطري مركوز في فطرة الإنسان، وموجود عنده قبل نشوء فكرة الانتماء الوطني والتجمّع على أساس الوطن، بل وقد بيّنت النصوصُ الشرعيّةُ أصالة حبّ الوطن والحنين إليه عند الإنسان، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا**﴾ (**النساء: 66**). فبيّن أن

---

56 الرمثا في الأردن، ودرعا في سوريا كنموذج.

57 سوف نتحدّث عن فكرة "الواجب والمحظور الوطني" ومخالفتها للشريعة في هذا الفصل.

الإخراج من الديار (أي الأوطان) هو أمر صعب على الإنسان، لشدّة ألفته واعتياده عليها. وبالفطرة نعلم أنّ حبّ الوطن شعورٌ أصيلٌ عند الإنسان، ولا نحتاج من يعلّمنا إياه! وليس مخصوصا في النزعة "الوطنية" التي نشأت وتشكّلت في ظروف خاصة، وحملت في معانيها ومقتضياتها قيمًا ومدلولاتٍ زائدةً عن مجرّد حبّ الوطن، بل حبّ الوطن ما هو إلا تابع في النزعة الوطنيّة، وأساسها أنّها: **هوية ومحور انتماء وولاء، وأنها تفرض واجبات ومحظورات على المواطن تسمّى "الواجب الوطني" أو "المحظور الوطني"، وأنّ لها واقعا تطبيقيّا ملموسا هو الدولة القطرية مرسومة الحدود، بحيث يكون الانتماء متوجّها لها، وللجماعة من البشر القاطنين داخل حدودها، بغضّ النظر عن أديانهم ومعتقداتهم ووجهات نظرهم في الحياة**. ولذلك فالواقع يبرهن أنّ "الوطنيّة" ليست مجرّد "حبّ الوطن"، وأنّ استخدامها بهذا المفهوم هو حيادٌ عن الموضوعية والواقع.

وبالعودة إلى الإسلام، نجد أنه – في نصوصه الشرعية المحكمة – قد وجّه إلى بعض تلك القيم: كالإحساس بالوشيجة بينه وبين الأرض، غير أنّه جعل هذا الإحساس مرتبطًا بالكون كله وليس بأرض محصورة بحدودٍ ما أنزل الله بها من سلطان! الوشيجة النابعة أصلا من أنّ هذا الكون عابد لله، يحس الإنسان بالتوافق والتناسق معه حين يكون عابدا لله، ويمشي في جنباته مستشعرًا عظمة الله. والإسلام كذلك يوجّهنا إلى الاهتمام بقضايا المسلمين كلّهم وليس فقط بأبناء الوطن الواحد! فهو لا يعترف بهذه الحدود الوطنية المصطنعة المفرقّة للأمة والمشتّتة لوحدتها، فمفهوم الأمة المسلمة الفسيح الواسع يغلب فيه على مفهوم الوطن الضيق المتعصّب. ولنا مع كتاب الله عزّ وجلّ هذه الجولة نستمدّ منها تلك المعاني:

﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (فصّلت: 11).

فههنا يحسّ المسلم بتلك الوشيجة الكبرى مع هذا الكون العابد لله، حين يرى مظاهر قدرة الله وتدبيره لمختلف ظواهر الطبيعة من حوله، سواء كانت جبال الهملايا، أو غابات الأمازون، أو بحيرات إفريقية، أو سهول أمريكا الشمالية، أو أنهار أوروبا، فكلّها من خلق الله، ومن ثمّ فكلّها طائعٌ لله وأثر من آثار قدرته.

ويقول تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (الملك: 15)**

ويقول: **﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 29)**.

ويقول: **﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: 61)**.

وبعدُ، فوطن المسلم الحقيقي الدائم هو الجنة، وما اعتبار الأوطان روابطَ أبديةً إلا خبل يصاب به من ابتعد عن منهج الله تعالى، فالمقام في هذه الأرض ليس أبديًّا، إنما هي دار ممرّ، ومتاع إلى حين: **﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ (البقرة: 36)**.

* **الوطنيّة باعتبارها هويةً ومحور انتماء وولاء بين جماعة من الناس:**

وهذا المعنى ظاهرٌ ظهورًا واضحًا عند دعاة الوطنية، حتى ممّن يحملون أسماء مسلمين! إذ إنّ جعلَ الولاء منعقدا على شيء غير الإيمان والإسلام هو في ذاته "جاهلية" حرّمها الله ونهى عنها، على النحو الذي تبيّن لدينا في الفصول السابقة بما لا يحتاج منّا إلى مزيد بيان أو إعادة، وبيّنا كيف ينبغي أن تكون الهويّة "إسلاميّة" فحسب؛ حيث إنّ الإسلام هو محور

الاستقطاب "القيميّ" الوحيد الذي ينبغي أن يستقطب الجماعة المسلمة.

وفي تحديد رابطة العقيدة في الله كرابطة وحيدة يتجمّع حولها الناس، لا المصالح الأرضية ولا القوم ولا الأهل يقول الله تعالى: **﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة: 24)**.

فانظر كيف وضع الله – سبحانه – الأواصر القومية والمصالح الاقتصادية والوطن في كفّة، والعقيدة الصحيحة في الله في كفّة أخرى ورجّحها، فينبغي إذن أن تكون هي صاحبة الثقل الأكبر وصاحبة الأولويّة عند المسلم.

ثم إنّه لا شرعية في الإسلام للتجمّع على غير الكتاب والسنة: **﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾ (آل عمران: 103)**

وجعل الله – سبحانه – عقد الولاء على "الإيمان" وحده لا شيء سواه من وطن أو جنس أو مصالح مشتركة، وإلا فلا شرعية لهذا الولاء: **﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: 71)**.

ومفهوم "الأمة" في الإسلام لا ينحصر بالمجموعة من البشر تعيش على أرض مشتركة وتجمعها مصالح مشتركة وتستخدم لغة مشتركة، ففي الكتاب الذي كتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ورد: **"بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد النبيّ الأميّ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، أنهم أمّة واحدة من دون الناس"**، وجاء فيه أيضا: **"وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس"**[58]. فالمحكّ هو ''الإيمان'' للدخول في مسمى الأمة الواحدة[59].

*** لا إنسانية النزعة الوطنية:**

إنّ التفرقة بين الناس والتفاضل بينهم على أساس مكان مولدهم ونشأتهم ومعاشهم هي أمر "لا إنساني" مرفوض؛ لأنّه يقوّم الناس وفقًا لكيانهم "الجبري" الذي لا خيار لهم فيه، بينما الأصل أن يكون تقويمنا للناس وفقًا لأفكارهم ومعتقداتهم وأعمالهم (الكيان الاختياري)، أي بحسب ما اختاروه هم بإرادتهم الحرّة، لا ما قُدّر عليهم دون إمكانية قبوله أو رفضه كأرض الميلاد والنشأة. وهذا هو العدل الذي أُمرنا به، والذي تقول به كل فطرة إنسانية سليمة، ويا للعجب حين نعلم كيف زيّف العلمانيون هذه القضية وزعموا – زورا وبهتانا – أن الإسلام كيان "جبري" لأنه أمر "موروث"! وأن القومية والوطنية هي أمور يختارها الإنسان! هذا القلب للمعايير الذي تمارسه تلك الفئات الضالة المضلّة هو بمثابة خنجر يقدح في إنسانية دعواتها ومصداقيتها.

---

58 (السيرة النبوية لابن كثير 2/321).

59 راجع إن شئت فقرات بعنوان "تحقيق معنى الأمة في صورته الحقيقيّة" في كتاب "واقعنا المعاصر" للأستاذ محمد قطب.

*** الواجب الوطني.. والثوابت الوطنيّة:**

يكثر الحديث عند دعاة الوطنيّة عن "الواجب الوطني" و"المحظور الوطني"، وعن "الثوابت الوطنية"، وهي قيم جماعيّة معيّنة يلتزم بها المواطنون، أو ينبغي أن يلتزموا بها. والوطنية كنزعة أو رابطة لا تتضمّن بذاتها "المعايير" أو "القيم" أو "الضوابط" التي تحدد كل ذلك؛ فما هي هذه "الواجبات" أو "المحظورات" أو "الثوابت" الوطنية بالضبط؟ ومن الذي يحدّدها؟ وما مرجعيتها المعيارية التي تضبط ما هو "وطنيّ" وما هو "ليس بوطنيّ"؟ إنها في الحقيقة معايير وضعها البشر وألصقوها باسم "الوطنية"، وبأنّ الوطنية تقتضيها، وتعارفوا عليها عبر العقود. والله سبحانه وتعالى نهى عن التحاكم إلى عقول البشر في شؤون تحديد "القيم" و"المعايير" و"التشريع" للناس، وسمّى ذلك عبادة للطاغوت (وهو كل ما يُعبد من دون الله، أي يُطاع من دونه سبحانه)، وجعله محكًّا للإيمان، وأمر بالرجوع إلى الشرع فيما تختلف فيه الأهواء وآراء الناس، وواقع الثوابت الوطنية أنها دون ضابط واضح، وتختلف فيها أهواء الناس وآراؤهم، ولنا جولة أخرى مع كتاب الله تعالى نستمدّ منها تلك المعاني، فهو دليلنا ومرشدنا ونورنا الذي نهتدي به في الظلمات:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا﴾ (النساء: 60).

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (البقرة: 213).

﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة: 31).

وفي تفسير هذه الآية نورد هذا الحديث النبوي:

"قدم عديّ بن حاتم على النبيّ – صلى الله عليه وسلم – وهو نصراني فسمعه يقرأ هذه الآية: "**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون**". قال: فقلت له: إنا لسنا نعبدهم، قال: أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه، قال: قلت: بلى، قال: فتلك عبادتهم"[60].

ويقول الشيخ الشعراوي – رحمه الله – في معرض تفسيره للآية: **﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا...﴾** (البقرة: 143):

"الله سبحانه يريد من المؤمنين أن يعيشوا مادية الحياة بقيم السماء.. وهذه وسطية الإسلام، لم يأخذ الروح وحدها ولا

---

60 الراوي: عدي بن حاتم الطائي، المحدث: ابن تيمية، المصدر: حقيقة الإسلام والإيمان، الصفحة أو الرقم: 111، خلاصة حكم المحدث: حسن.

المادة وحدها.. وإنما أوجد مادية الحياة محروسة بقيم السماء.. فحين يخبرنا الله سبحانه أنه سيجعلنا أمة وسطا تجمع خير الطرفين نعرف أن الدين جاء ليعصم البشر من أهواء البشر.

"الله تبارك وتعالى يريدنا أن نبحث في ماديات الكون بما يخلق التقدم والرفاهية والقوة للبشرية.. **فما هو مادي معملي لا يختلف البشر فيه.. لكن ما يدخل فيه أهواء البشر ستضع السماء لكم قانونه**.. فإذا عشتم بالأهواء ستشقون. وإذا عشتم بنظريات السماء ستسعدون"[61].

فواقع الأعمال التي توصف بأنها أعمال "وطنية"، أو أنها "واجب وطني"، أو "محظور وطني"، أو "ثوابت وطنية"، واقع هذه الأعمال أنّها تدخل عليها "أهواء" البشر، فهي نشاطات إنسانية ينبغي تقويمها بالمعيار الشرعي لا بالمعايير البشرية، فليس ثمّة أحد يملك أن يفرض الواجبات والمحظورات إلا الله سبحانه وتعالى، وهذا أصل في الدين لا ينبغي أن يخالف فيه مسلم. ولذلك فحين يقول أحد الأساتذة "إن الواجب يستدعي رفض "الخدمة المدنية" جملة وتفصيلا، رغم الإغراءات والمخصّصات والإعفاءات والهبات، لا بل والضغوطات من قبل السلطة وأجهزتها المختلفة، **وإلا فإننا سنقع في المحظور، دينيّا ووطنيّا"**[62]! حين يقول هذا الكلام يقع في مغالطة شرعية واضحة، وإن لم تكن مقصودةً على مستوى الاعتقاد بأنّ هناك من يملك فرض الواجبات والمحظورات غير الله سبحانه وتعالى، فإنّها على مستوى التعبير مرفوضة شرعًا، ولا يجوز أن يختلّ معيار الإباحة والحظر والتحليل والتحريم عند المسلم؛ لأنّها مسألة متعلّقة بأصل من أصول الدين، والتأثير على القارئ المسلم يكون كبيرا إن اعتاد كتّابنا على مجاراة مصطلحات العصر دون تمحيص لها إنْ كانت توافق الشرع أو تخالفه. ونحن نتساءل: هل يستوي حال المسلم بين أن يكون له مصدر واحد يستمد منه القيم والموازين والتوجيهات والشرائع، ويتلقّى منه أوامر الإباحة والحظر، وبين أن يكون له مصادر شتّى، يأخذ من كلّ واحد منها بعض التوجيهات في ميادين مختلفة من الحياة؟! والقرآن قبلنا بأكثر من أربعة عشر قرن يتساءل: ﴿**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ**﴾ (**الزمر: 29**). وتلك هي حقيقة دعوة التوحيد؛ دعوة لتوجيه هذا الكيان البشري إلى مصدر واحد، بدلا من أن يتشتّت شمله وتتفرّق كينونته. ومن هنا تنشأ تلك الطاقة العجيبة التي تنطلق في الأرض لبناء الحضارة الإسلامية من جديد، كما كانت في قلوب أولئك النفّر الكرام الذين وضعوا حجارة الأساس فيها، حين وقف واحد منهم أمام قائد الفرس رستم وقال: "**إنّ الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة ربّ العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام**".

خلاصة:

---

61 خواطر محمّد متولّي الشعراوي، ولنا تحفّظ على تعبير "نظريات السماء"؛ فهو لا يليق بوصف شرع الله والله أعلم.

62 الخدمة المدنية والفلسطينيّون في إسرائيل، مركز الدراسات المعاصرة. والفقرة منقولة من مقدمة الكتاب لـ أ.د إبراهيم أبو جابر – مدير مركز الدراسات المعاصرة.

وأخيرا نقول لهؤلاء الذين يقلّلون من أهمية تصحيح هذا المفهوم، ولا يعتبرون أن ثمّة خطر فيه: ألمْ تروا تلك الثمار النكدة للوطنية؟ والتي لا زلنا تعيش في ظلالها المشؤومة هذه الأيام؛ حيث يقتل آلاف المسلمين في أرض ليبيا المسلمة، ويسبحُ الآخرون في حمّام الدم، ورغم ذلك يقف عاشر أكبر جيش في العالم (الجيش المصري) بمقربة من هذه المجازر لا يحرّك ساكنًا! لا لشيء سوى أنّ هؤلاء الذين يموتون ليسوا "مصريّين"، وأنّ التدخل في شؤون "وطن" آخر ليس من مسؤولياته، إنّما مسؤوليته الحفاظ على أمن الوطن المصري! ألا تعسًا للوطنية كم فرّقت أبناء الأمة وكم عوّقتهم عن النهوض!

وخلاصة القول في هذا الفصل أنّ الوطنية لا يمكن بحال أن تكون هي **"هويّة"** المسلم، ولا مجرّد جزء في هذه الهوية، فهذا يؤدّي إلى تشتّت انتماء المسلم وفقدان فاعليّة الهويّة الإسلاميّة، فضلا عن مخالفته للشريعة الربانية.

والمسلم يرفض الهويّة الوطنيّة لأنّها:

– تشوبُ صفاء التوحيد وتنقض عقيدة "الولاء والبراء" فيه إنْ جعلَها الإنسان محور ولاء؛ بأن يكون ولاؤه منعقدا على أبناء الوطن الواحد بغضّ النظر عن معتقداتهم وأفكارهم، بل حتى لو كانوا من المشركين!

– اتباع للأهواء وعقول البشر فيما ينبغي أن تكون مرجعيّته هي الشرع وحده، فهي زعمٌ (بلسان الحال إن لم يكن بلسان المقال) أنّ هناك قيمًا إنسانية يكون لها مصدرٌ يملك فرضها أو إباحتها أو حظرها غير الشريعة الإسلامية التي أنزلها الله سبحانه وتعالى، وهذا المصدر هو "الوطنية" أو "الحسّ الوطني" أو "الثوابت الوطنية"!

– تفتقرُ إلى الموضوعية؛ فلا يوجد ضابط يحدّد "القيم" التي تقتضيها، بل كلٌّ يزعم لها ما يشاء، ويُدخل في مقتضياتها ما يشاء.

– نزعة لا إنسانية؛ كونها تُفاضلُ بين البشر وتقوّمهم وفقا لكيانهم "الجبري" (أرض الولادة، الوطن، النشأة)، فتجعل رابطة الانتماء بين البشر على أساس هذا الكيان الجبري للإنسان حتى لو كان الإنسان كافرا معرضا عن عبادة الله. وتجعلُ من الهوية الإسلامية والانتماء وفق الكيان "الاختياري" للإنسان نزعة "طائفية"[63] "متعصّبة"، مع أن المنطق الموضوعي يبرهن أن النزعة الوطنية هي "المتعصّبة" و"اللاإنسانية"!

– تفضي إلى التبعية للغرب؛ فحين تجزّأت الأمة إلى كيانات وطنية متفرّقة هزيلة كان أنِ التحق كلّ كيان بقوة كبرى تسنده؛ لأنه لا يعتمد على هوية أصيلة عند الأمة، فكان من البديهيّ أن يكون تابعا لإحدى القوى الكبرى.

– نزعة عَمِلَ الغرب على زرعها بين المسلمين لتفريقهم والحيلولة دون وحدتهم، بعد أن فشل في إبقاء وجوده عسكريا في كل بلاد المسلمين (رغم وجوده في بعض البلدان اليوم!) عملَ على إثارة هذه النُّعرة الوطنية لتمزيق وحدة الأمة.

– تقليد لا مبرّر له؛ فملابسات ظهورها ونشأتها في أوروبا لم تمرّ بها الأمة الإسلامية، فكان اعتبارها شيئا حتميا على الأمة الإسلامية أن تتعايش معه أمرًا منافيًا للموضوعيّة! ولسنا نحتاج أن نبرّر توافق الإسلام مع كل وافد يأتينا من قيم الغرب؛ ففي ديننا ما يغنينا من القيم والموازين.

---

63 سوف يأتي الحديث عن شبهة "الطائفية" في فصل تالٍ بإذن الله.

شبهات حول الوطنية

تثور الكثير من الشبهات حول مفهوم الوطنية، وعلى وجه الخصوص من قِبَلِ من أراد لها أن تكون مفهوما شرعيًّا[64] ندبَ إليه الشرع بل وأوجبه أحيانًا! وسوف نناقش في هذا الفصل أبرز هذه الشبهات التي تثور حول موضوع الوطنيّة وعلاقتها بالإسلام، إضافة لما سُقْناه من رفع الالتباسات في الفصل السابق.

* **الشبهة الأولى: هل هو مجرّد خلاف مسمّيات؟**

إحدى أبرز الشبهات التي تثور هي القول بأن الخلاف حول الوطنية هو خلاف مسمّيات، وأن منشأ هذا الخلاف أنّني أتصوّر الوطنية على أنها الوطنية المذمومة؛ أي أحمّلها معاني مخالفة للإسلام، ولذلك أرفضها إطلاقا. وأنهم حين عرّفوا (أو عرّف لهم بعض العلماء) الوطنية كان المعنى يتمحور حول: **حبّ الوطن والدفاع عن الأرض**، وهذا مقبول في الإسلام (بل يحثّ عليه)، ولذلك لا حاجة للقول بأننا نرفض الوطنية إنما نرفض المذمومة منها.

ويكفي في الردّ على هذا القول هو بيان مرادي من كتابة ما كتبتُ حول الوطنية؛ وهو نقد "الواقع" المنحرف في المجتمع وتقويمه، سواء كان في التصوّر أو في الممارسة. ولم يكن كلّ همّي نقد ما في بطون الكتب، أو ما في عقول المفكرين طالما كان هذا الكلام غير موجود في تصورات الناس أو في سلوكهم بشكل عام! وحقيقة الواقع أن الوطنية متأصّلة في حسّ الناس بالمعاني التي ذكرتها، وهي في الأساس: **جعلها رابطة انتماء وهوية، وشعورهم بواجب وطني مشترك غير الواجب الإسلامي، أي وجود مصدرية أخرى للقيم إلى جانب الإسلام**. وليس معناها عند الناس هو حب الأرض والدفاع عنها فحسب! ولذلك كان من الطبيعي رفض هذا المذهب بعد بيان مخالفته للمنهج الإسلامي طالما كان الموافق للإسلام فيه هو من **"التوابع"** وليس من **"أصوله"**، فأصل نشأته أنه رابطة انتماء وهوية تقتضي واجبات معينة، وأصل وفوده إلى بلاد المسلمين هو بهذا المعنى، ثمّ تبع هذا كله (وهذا طبيعي) حبّ الوطن والدفاع عنه، طالما كان هذا الوطن محور الانتماء والولاء. بهذه الصورة نعرض الموضوع، لا ببتر معانيه الأصيلة وأخذ المعاني التابعة الموافقة للإسلام (في الشكل وليس في المنطلق) وجعل الوطنية – بناء على ذلك – لا تخالف الإسلام، بل من مقتضياته!

وحتى حينما ننظر إلى بعض الناس ممّن ينادي بالوطنية، وممّن يُفترض أن تكون الوطنية في حسّهم مجرد حبّ الوطن والدفاع عنه حسب ما يعرضونه من أقوال لشخصيات علمية! حين ننظر إلى تصوراتهم وممارساتهم نجد أن الوطنية بمعناها المخالف للإسلام متغلغلة إلى حدّ كبير! **فواقع الدفاع عن الوطنية كان مختلفا عن واقع الممارسة لها!** وهذا هو محكّ القضية، فنلاحظ أن الوطنية غدت عند الكثير من هؤلاء (إلا من رحم ربّك) هوية وانتماء، مع أن الأصل أن تكون الهوية "إسلامية" فحسب؛ فليس هناك هوية "وطنية" أو "فلسطينية" كما يقول الكثير من الدعاة، فمفهوم الهوية يدور حول **القيم التي تميّز الفرد أو المجموعة وتصبغ السلوك**، وهي **محور استقطاب للفرد والجماعة حول قيم معينة**[65]، فيظهر فيها معنيان

---

64 هكذا بالقوّة!

65 راجع الفصل الأول.

أساسيان لا يمكن أن ينسبان بحال إلى الوطن أو الأرض أو القوم:

1) القيم التي تصبغ السلوك.
2) الانتماء والولاء.

فلا يجوز أن يتخّذ المسلم قيمًا تحدّد سلوكه – طاعة لله – إلا من مصدرية الإسلام[66]، ولا يجوز للمسلم أن يوالي وينتمي للبشر على أساس أوطانهم، إنما يوالي وينتمي على أساس الإسلام والإيمان كما بيّنا سابقًا.

ونلاحظ أيضا أن النزعة الوطنية أدّت عند هؤلاء وغيرهم إلى حَرْفِ الكثير من قضايا المسلمين عن منطلقها الأصليّ؛ وهو المنطلق العقدي؛ أنها قضايا إسلامية وليست قضايا وطنية، وأصبحت – خلافا لذلك – قضايا وطنية بحتة، خاصة بالشعب الساكن في هذه الدولة أو تلك في الأساس، وليست – كما هو أصلها – قضايا خاصة بكلّ مسلم على وجه المعمورة.

ظهر لنا إذًا بأن المنادين بوطنية "مقبولة" موافقة للإسلام ومن مقتضياته هم أنفسهم من تكون وطنيّته مصدرا لمخالفات شرعية، متمثّلة بجعل الوطن هوية تحدّد الانتماء وبعض القيم التي تصبغ السلوك، وبحَرْفِ بعض قضايا المسلمين عن منطلقها الأصلي، وجعلها قضايا غاصب ومغصوب فحسب، وإسبال الشرعية على تقسيمات الغرب المحتلّ وحدوده في بلاد المسلمين، باتخاذ تلك المساحات المقسمة "أوطانا" تنعقد المحبة عليها بشكل خاص أكثر من غيرها، دون وجود مبرّر موضوعيّ أو شرعي! فما يتصورونه عن الوطنية في حال الدفاع عنها أمام من يرفضها ليس هو الأمر الموجود في حقيقة الواقع، وقد كان نقدُنا للوطنية بناء على حقيقة تصوّرها وممارستها عند المسلمين، لا بناء على تصورات بعض "المفكرين" و"العلماء" مع احترامنا وتقديرنا لهم.

*** شبهة أخرى:**

أتى بعض الطيّبين بحجةٍ تحملُ وجاهة لأول وهلة، ولكن سرعان ما يتبيّن أصل المغالطة – غير المقصودة – فيها، فقد قالوا: إن الإسلام هو مصدر كل شيء، ولكننا لا نستطيع أن نصف كل شيء ونقول عنه إنه "واجب إسلامي"، فهناك تقسيمات "اصطلاحيّة" داخل الإسلام لمختلف مجالاته، وهي بمثابة تخصصات في التسمية لتسهيل الفهم والتعامل مع دين الله عزّ وجلّ. فنحن نقول مثلا: "فلان عمل هذا بدافع إسلامه وأخلاقه الحسنة". فنقوم بعطف الأخلاق على الإسلام ليس اقتضاءً للاختلاف بين "الإسلام" و"الأخلاق الحسنة"، فالأخلاق الحسنة جزء من واجبات الإسلام، وإنما كان عطفها عليه **"عطفَ جزءٍ على كلّ"** كما يقول البلاغيّون، وقد جُعل هكذا للتركيز على جانب الأخلاق في هذا الرجل، وأنّ هذا الجانب هو الذي أثّر في انبعاث هذا العمل منه. وهكذا الأمر بالنسبة للوطنية، فهي من واجبات الإسلام، ولكنّنا حين نقول في خطاباتنا مثلا: "يفرض ذلك علينا الواجب الإسلامي، والواجب الوطني"، حين نقول ذلك لا نقصد أن هناك "قيمًا" و"واجبات" مصدرها الإسلام، و"قيمًا" و"واجبات" أخرى مصدرها الوطنية، إنما ذكرنا الواجب الوطني للتركيز على هذا الجانب من الإسلام، لأنّ مضمون حديثنا هو الدفاع عن الأرض والمحافظة عليها، فكان طبيعيا أن نُبرز هذا الجانب من

66 وهذا غير الأشكال المدنية والعلوم التطبيقية البحتة.

الإسلام، فالإسلام يحثّ على تعمير الأرض وحمايتها والحفاظ عليها، وهذه بمجموعها نسمّيها "وطنية"، وهي من مقتضيات الإسلام، وإنما أبرزناها في الخطاب عطفًا على الإسلام باعتبارها جزءًا منه، ولكنّه جزء لصيقٌ بمجال الخطاب فكان إبرازه ضروريا.

وهي تبدو للوهلة الأولى – بحقّ – حجّة قوية، تُنهي هذا الخلاف، وتجعلنا نقبل مصطلح "الوطنية" بهذا المعنى "الإسلامي"، ولكنّنا مع ذلك نرفض الوطنية، اسما ومعنى، للأسباب التالية:

1) ذكرنا كيف أن الواقع الفعليّ الموجود في حسّ الناس عن الوطنية هو ليس هذا، رغم وجود هذا التبرير منذ فترة طويلة، بأنّ الوطنية جزء من مقتضيات الإسلام، فهو تبرير "نظري" "لا واقعي"، حيث يظهر فقدان فاعليّته في الساحة الإسلامية، بما يجري في هذه الساحة من "خطاب" أو "رؤية" أو "ممارسة" وطنية تخالف الإسلام كلّها كما بينّا في الفقرات السابقة.

2) لم يكن هناك وجود لمسمّى "الوطنية" قبل أكثر من قرن من الزمان، بل بدأت بذور هذا المصطلح ومقتضياته تُزرع في بدايات القرن العشرين، وكان أبرز من أظهر هذا التوجّه الوطني هو سعد زغلول في ثورة 1919، وبالرغم من عدم تداول المصطلح قبل هذه الفترة لم تكن هناك مشكلة في إنشاء خطاب إسلامي يحثّ على الدفاع عن الأرض وتنميتها وتعميرها، فالتحجّج بضرورة استعمال المصطلح ضعيف من هذا الباب.

3) يمكننا أن نسمّي هذه الواجبات تجاه الأرض والأوطان بمسمّياتها دون أن نسمّيها "وطنية"، فنسمّيها مثلا: تنمية الأرض، أو: تعمير الأرض، أو: حماية الأرض.. إلخ، وأن نبيّن في الخطاب ارتباط هذه القضايا بالإسلام، وأنّها من مقتضياته مباشرة، وبهذا يمكننا الاستغناء عن مصطلح "الوطنية" الدخيل وما يحمل في ظلاله من معاني مخالفة لدين الله عزّ وجلّ.

4) أن مصطلح "الوطنية" مصطلح دخيل على الأمة الإسلامية، وهو مصطلح "قِيَميّ"، أي ليس مجرد شكل ماديّ أو مدنيّ، إنما هو أمر يحمل قيمًا معينة، فكان من التبعية والضعف والهزيمة النفسية أن يتمّ التعامل معه ومع غيره من المصطلحات المشابهة بهذا المنهج "التوفيقي"، أي بأن نأخذ منه ما يوافق الإسلام ونحوّر مضمونه الأصلي ثمّ نجعله من مقتضيات الإسلام! لإظهار مواكبة الإسلام للعصر أو لأسباب أخرى. فالإسلام أولا ليس بحاجة إلى هذا "التزيين" من المصطلحات البشرية الجاهلية! والنظرة إلى مصطلحات الجاهلية المعاصرة على أنها أشياء "قياسية" عامة لكلّ البشر هو تبعية محضة وانتقاص للقدرات الذاتية للأمة الإسلامية كأمة متفردة، وهذه التبعية لا يمكن أن تحدث في ظلّها نهضة عند الأمة الإسلامية.

5) أنّ كلمة الوطنية حملت في معناها الأساسي المتداول بين الناس قيما مخالفة للإسلام ولا يمكن أن تلتقي معه، وهذا هو أساسها ومحورها، وإن كانت لها توابع توافق الإسلام مثل: حبّ الوطن، والدفاع عنه. فحين يكون خطابنا مطعّما بالوطنية واستخدام المصطلح نكون قد وقعنا في شبهة انصراف المعنى المراد إلى قيمها المخالفة للدين (وهذا هو الأصل والذي يحدث في الواقع!)، وقد أُمِرْنا في الإسلام أن نتّقي الشبهات كما في حديث الرسول عليه الصلاة والسلام: **"إن الحلال بيّن وإن الحرام بيّن وبينهما مشتبهات لا يعلمهنّ كثير من الناس. فمن اتّقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه. ومن وقع**

في الشبهات وقع في الحرام.." (**صحيح مسلم**). فكان الأحرى للمسلم أن يمتنع عن استعمال مصطلح "الوطنية" في خطابه اتّقاءً للشبهة، خشية أن يقع في محظور مشابهة المذهب الوطني المخالف للإسلام، فإن المعنى ينصرف إليه عند العامة. ولنا في قصّة نَهْي الله سبحانه وتعالى المؤمنين عن استخدام كلمة "راعنا" خير عبرة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ (**البقرة: 104**). حيث أمرهم بالامتناع عن استخدام كلمة "راعنا" واستبدال كلمة "انظرنا" بها؛ لأن اليهود اغتنموا فرصة استخدام المسلمين لها وخاطبوا بها النبيّ – صلى الله عليه وسلّم – بقصد الشتم، لأنها تفيد معنى الشتم في لغتهم، مع أنّ الكلمة في الأصل كلمة عربية أصيلة واستخدمها المسلمون قبل اليهود! ولكن لأنّ استخدامها يتيح لليهود تمرير المضمون المسموم حرّم الله استخدام المسلمين لها، فكيف نقول اليوم والوطنية في الأصل كلمة دخيلة ولسنا بحاجة إليها فضلا عن احتوائها على معاني مخالفة للإسلام بصورة واضحة وانتشارها بهذه المعاني في حسّ الناس؟! فالأحرى بالمسلم نبذها والكفّ عن استخدامها في خطابه.

6) الأصل في استخدام أي مصطلح ردّ معناه إلى مراد القوم الذين أبدعوه، بالصورة التي نشأ فيها عندهم، لأن معناه خاص بملابسات خاصة في بيئة القوم. كما هو الحال – على سبيل المثال – في مصطلح "الديمقراطية"، الذي أساس معناه عند القوم الأوروبيين الذين ابتدعوه (كنظام للحكم بناء على تراثهم الإغريقي مع إضفاء شكل جديد له) هو حكم الشعب بالشعب، أو الأكثرية من الشعب، بما يشمل من التشريع من قبل الشعب (وليس فقط الشورى لاختيار الحاكم)، وبما يشمل من الحريات الأربعة وغيرها المخالفة في مجملها للإسلام. فلا يجوز – علميًّا – أن يأتي أحدهم ويأخذ المصطلح ليصف به نظاما يخالف أسس المعنى المراد من المصطلح الأساسي كما هو عند القوم الذين أنشأوه! كأن يقول مثلا: "الديمقراطية هي اختيار الحاكم من قبل الشعب"، وأن يصف نظاما يردّ التشريع لله – عزّ وجلّ – ويحتكم إلى نصوص الشرع ويجعل لها السيادة بأنّه نظام "ديمقراطي"! فأصل الديمقراطية مبنيّ على ردّ التشريع ووضع منهج الحياة إلى إرادة الشعب (في الواقع إرادة الأقلية الحاكمة)، وأصل الإسلام ردّ التشريع ووضع منهج الحياة لله وحده! وكذلك الأمر مع "الوطنية"، لا يمكن أن نأخذ بعض مقتضياتها (لا أساس معناها) ثم نطلق على ما أخذناه وصف: "وطنية"! تماما كما أنني لا أستطيع أخذ "عجلات سيارة" + "مقود" + "كراسي سيارة" وأن أطلق عليها بمجموعها وصف "سيارة"!

* **شبهة ثالثة:**

وهي استدلال بعض المفكّرين والدعاة بآيات من كتاب الله عزّ وجلّ تثبت لفظ "الأخوة" تجاه أقوام ليسوا من المسلمين، وهو ما يبرّر عندهم وجود "هوية" أو "أخوة" غير "الإسلام" عند المسلم، وهذه الهوية أو الأخوة لها مقتضيات من الانتماء والولاء!

يقول فضيلة الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي في مقال له على موقعه في الشبكة بعنوان "**إشكالية الوطن والوطنية والمواطنة**":

"نؤَكِّد: أن هذه الأخوة على عمقها، لا تمنع من وجود أنواع أُخَر من الأخوّات. مثل الأخوة الوطنية أو القومية، ومثل الأخوة الإنسانية.

وقد ناقشني أحد المتشدِّدين يوما، معترضا على قولي: (إخواننا الأقباط). بأن الأخوة إنما تكون بين المسلمين بعضهم وبعض، والأقباط نصارى، فكيف يكونون إخواننا؟

قلتُ له: إن الأقباط إخواننا في الوطن، وإن لم يكونوا إخواننا في الدين، يجمعنا وإياهم وطن واحد.

قال: وهل هناك أخوة غير أخوة الدين؟

قلتُ: نعم، هناك الأخوة الوطنية، والأخوة القومية، والأخوة المهنية، والأخوة الإنسانية... إلخ.

قال: وما الدليل الشرعي على ذلك؟

قلتُ: الدليل على هذه الأخوَّات: وجودها في عالم الناس وواقعهم. وإن كان ولا بد من دليل من نصوص الشرع، فها أنا أسوقه إليك من القرآن الكريم.

اقرأ معي قول الله تعالى في سورة الشعراء: **﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء:106]**.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ...﴾ [الشعراء:123،124].

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء:142،141].

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء:161،160].

فكلُّ هؤلاء الأقوام كذَّبوا رسلهم وكفروا بهم، ومع هذا عبَّر القرآن عن علاقة رسولهم بهم بأنه علاقة (الأخوة) **﴿قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾**. وذلك لأن هؤلاء الرسل كانوا منهم، ولم يكونوا أجانب عنهم، فتربطهم أخوَّة قومية.

وفي هذه السورة نفسها عرضت قصة شعيب مع أصحاب الأيكة فقال تعالى: **﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء:177،176]**. ولم يقُل كما قال في الرسل السابقين: إذ قال لهم أخوهم شعيب، لماذا؟ لأن شعيبا لم يكن من أصحاب الأيكة، بل كان غريبا عنهم، وإنما كان من مَديَن، فهم قومه وليسوا أصحاب الأيكة، ولهذا قال في سورة الأعراف وفي سورة هود وفي سورة العنكبوت: **﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً﴾ [الأعراف:85، هود:84، العنكبوت:36]**.

فهذا يدلُّنا على أن الأخوة ليست دائما دينية، بل قد تكون وطنية أو قومية، أو غيرها.

وهنا لم يجد المعترض بُدًّا من التسليم، وهل يعارض مسلم دلالة القرآن الكريم؟

وإذا ثبتت الأخوة، فقد ثبت ما تقتضيه وتستلزمه من المحبَّة والمساواة والتضامن، إذ لا معنى للأخوة بغير هذا"[67].

والمشكلة في هذا الطرح أنّه يلبّس أخوة "النسب" المذكورة في هذا الآيات بالأخوة الإيمانية التي قال فيها القرآن **﴿إنما المؤمنون إخوة﴾** (**الحجرات: 10**). يقول الألوسي في معرض تفسيره لقوله تعالى: **﴿إذ قال لهم أخوهم نوحٌ ألا تتقون﴾**: "(أَخُوهُمْ نُوحٌ) أي نسيبهم كما يقال: يا أخا العرب ويا أخا تميم، وعلى ذلك قوله:

67 إشكالية الوطن والوطنية والمواطنة، الدكتور يوسف القرضاوي، من موقع الشيخ على الشبكة.

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا[68]

فهذه أخوة نسب "جبريّة" إن صحّ التعبير، لا تقتضي ما تقتضيه الأخوة الإسلامية من محبّة ومساواة وانتماء، فكيف يستدلّ الدكتور بها حتى يقول في نهاية حديثه: "وإذا ثبتت الأخوة، فقد ثبت ما تقتضيه وتستلزمه من المحبَّة والمساواة والتضامن، إذ لا معنى للأخوة بغير هذا"، من أين أتى الشيخ الدكتور بأنّ الأخوة القومية تقتضي المحبّة والمساواة؟ إنّ آيات محكمة كثيرة في كتاب الله تناقض هذا المعنى الذي توصّل إليه:

يقول تعالى: ﴿**قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**﴾ (**الممتحنة: 4**).

فهل يكفي أن يكون قوم سيّدنا إبراهيم عليه السلام "إخوانه" في القومية حتى تقتضي "أخوة النسب" هذه منه محبّتهم والمساواة بينهم وبين المؤمنين؟! لقد قال إبراهيم ومع معه لقومهم: ﴿**إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ**". فلا محبّة ولا ولاء ولا انتماء لهم ما داموا قد كفروا بالله سبحانه وتعالى!

ثمّ أيّ مساواة تلك تكون بين الناس بناء على الأخوة القومية أو الوطنية؟! لقد بيّن تعالى في كتابه الكريم معيار تقويم الناس، وأنّه لا مساواة بين المؤمن والفاسق، فضلا عن أن تكون هناك مساواة بين المؤمن والكافر! يقول تعالى: ﴿**أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لّا يَسْتَوُونَ**﴾ (**السجدة: 18**). ويقول تعالى: ﴿**أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ**﴾ (**القلم: 35**). ويقول تعالى: ﴿**أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ**﴾ (ص: 28).

إنّ المعيار في المساواة بين النّاس والمفاضلة بينهم ليس هو كون هؤلاءِ الناس من قومنا أو من وطننا، ليس هو "الأخوة القومية" أو "الأخوة الوطنية" المزعومة! وإنّما المعيار كما هو واضح في محكم الآيات معيارُ "الدين".

والمشكلة الكبرى أن يبني الدعاة على هذه الأخوّة القومية أو الوطنية المزعومة "ولاءً" تقتضيه من المسلم! يقول الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي في نفس المقال بفقرات تحت عنوان **"عند تعارض الولاءات والانتماءات"**:

"فالإنسان في واقع الأمر ليس له انتماء واحد، فقد تتعدَّد انتماءات الإنسان باعتبارات شتَّى، ولا نجد أيَّ تناقض بينهما.

فالإنسان ينتمي إلى أسرته، وينتمي إلى قريته، وينتمي إلى محافظته، وينتمي إلى قُطره أو وطنه، وينتمي إلى إقليمه، وينتمي إلى قارَّته، وينتمي إلى دينه، وينتمي إلى أمَّته (الكبرى المؤسَّسة على الدين)، وينتمي إلى الأسرة الإنسانية.

ولا حرج في ذلك ولا ضير، فهذه الانتماءات غير متعارضة ولا متناقضة، بل هي تعبِّر عن حقائق قائمة بالفعل، والعلاقة فيما بينها علاقة الخاص بالعام، والأخصّ بالأعمّ، وما بينهما.

---

68 تفسير روح المعاني للألوسي.

إنما تحدث الإشكالية حين يتعارض الانتماء إلى الوطن والولاء له، مع انتماءات وولاءات أخرى يلتزم بها الإنسان.

وذلك مثل: الانتماء إلى الدين والولاء له.

ومثل: الانتماء إلى القوم والولاء لهم.

ومثل: الانتماء إلى البشرية والولاء لها.

فأيُّ هذه الولاءات والانتماءات أولى بالتقديم على غيرها؟ أعني: إذا تعارض الولاء للوطن والولاء للدين، فأيُّهما يقدم، وبأيِّهما نضحِّي؟

الذي يظهر في هذه الحالة: أنه في حالة التعارض بين الدين والوطن، فإن الدين هو المقدَّم، لأن الوطن له بديل، والدين لا بديل له"[69].

ومع أنّ الشيخ واضح في تقديم الولاء للإسلام في آخر كلامه، بل لعلّه يقصد معنى آخر في إمكانية وجود ولاءات أخرى لغير الإسلام، ونحن نحسن الظنّ به، ولكنّنا نتوجّه بالنقد إلى الكلام كما هو في المقال، راجين من المولى عزّ وجل أن يكون متبرأً من أيّ ولاء لغير دين الله عز وجل ونحسبه كذلك. ولكن تكمن المشكلة في كلامه أنّه يقرّ تعدد الانتماءات مع الإقرار "بمقتضيات" لهذه الانتماءات، ويقرّ في كلامه كذلك بوجود "ولاء" على غير أساس الإسلام؛ فهناك الولاء للوطن، والولاء للدين، والولاء للقوم، والولاء للبشرية! والأصل أن الولاء ركن من أركان التوحيد كما بيّنا في الفصل الأوّل، ولا ينبغي أن يكون هذا الولاء عند المسلم إلا في الله، وينصرف للناس بحسب إيمانهم أو كفرهم، يقول تعالى: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾ (**المائدة: 55**). ولفظ "إنّما" يفيد الحصر، فبيّن أن الولاء لا يجوز أن ينصرف لغير الله ورسوله والمؤمنين، فلا يجوز أن يوالي المسلم قومه لمجرّد رابطة النسب والقوم، ولا أن يوالي المواطنين في بلده لمجرّد أنهم يقطنون في وطنه، وكونه لا يواليهم لا يعني أنّه لا يعاملهم بالبرّ، كما يقول تعالى: ﴿**لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ (**الممتحنة: 8**). ولكنّ المعاملة بالبرّ شيء، واتخاذهم إخوانا وموالاتهم شيء آخر، فالله سبحانه لم يقل "لا ينهاكم أن تتخذونهم إخوانا"، ولكن أمرنا بالبرّ بهم والقسط إليهم، والبرّ بهم والقسط إليهم لا يقتضيان أيّ نوع من الأخوة أو الموالاة! وكذلك الأمر بالنسبة للمحبّة التي يريد بعض النّاس أن تقتضيها هذه الأخوة الوطنية أو القومية، فقد كان أمر الله واضحا في النهي عن موادّة من حادّ الله ورسوله حتى لو كان من قومنا بل من أهلنا: ﴿**لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ (**المجادلة: 22**). ونهى سبحانه عن موالاتهم حتى لو كانوا آباءنا وإخواننا! يقول تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إِنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ (التوبة:

---

69 إشكالية الوطن والوطنية والمواطنة، الدكتور يوسف القرضاوي، من موقع الشيخ على الشبكة.

23). وقد نهى الله سبحانه عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين: ﴿**لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ**﴾ (**آل عمران**: **28**). ومن المعلوم أن الوطن والقوم يحويان أخلاطا شتّى؛ من الكفار والمؤمنين، فكيف يستقيم مع هذا البيان من العليّ الجليل قولُ من يقول بوجود ولاء قومي وولاء وطنيّ؟ ونهى الله سبحانه كذلك عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ (**المائدة**: **51**). فكيف يستقيم مع هذا البيان الواضح الجليّ قولهم بوجود الولاء الوطني والقومي، ومن المعلوم أنّه قد يكون في قوم المسلم ووطنه يهود أو نصارى؟!

الواقع أنّ هذا الولاء الوطنيّ والقوميّ لا يمكن أن يتواجد في قلب المسلم الفاهم لدينه، ولعلّ الضعف العقديّ الذي شاب مناهج التعليم الديني الكبرى في العالم الإسلامي هو الذي جعل تصوّر قضيّة الولاء والبراء مضطربًا في حسّ الكثير من الناس والدعاة.

قد تبيّن لنا إذن أنّ القول بالأخوة الوطنية أو القومية، واستحضار النصوص القرآنية للاستدلال على هذا القول هو ضرب من محاولة التوفيق بين مسلّمات في الواقع المعاصر، وبين المسلّمات الشرعيّة؛ فالأخوة الوطنية في الواقع المعاصر تقتضي المحبة والولاء والمساواة، وهي في الشريعة الإسلامية لا تقتضي المحبّة والولاء والمساواة، وإنما معيار المحبّة والولاء والمساواة هو "الدين"، فالمؤمن نواليه ونحبّه في الله، حتى لو لم يكن من وطننا ولا من قومنا، والكافر نتبرّ منه (لكفره لا لطبيعته البشرية كإنسان) حتى لو كان من وطننا أو من قومنا، فالقضية في دين الله واضحة أشدّ الوضوح إذا ما عدنا إلى محكمات الشريعة، ويشوبها الانحراف والضبابية فقط حين نلجأ إلى المتشابه من الآيات ونقدّم فهمنا المغلوط لها على المحكمات.

* **شبهة رابعة وأخيرة**:

ونكتفي في هذا الفصل بإيراد هذه الشبهة الأخيرة؛ حيث يستشهد بعض الدعاة على شرعية "الوطنية" بأحاديث للرسول عليه الصلاة والسلام، وبعضهم يستشهد بكلام موضوع مكذوب يجعلونه حديثًا كقولهم: "حبّ الأوطان من الإيمان"! وحتّى لو كان هذا الكلام حديثا، فهل يعني أن "الوطنية" من الإسلام أو الإيمان؟! وقد بيّنّا في السابق أنّ "حبّ الوطن" شيء، و"الوطنية" شيء آخر تماما، فالأوّل نزعة فطريّة لسنا بحاجة إلى استدلال شرعيّ على وجودها، والوطنية مذهب دخيل دلف إلى العالم الإسلامي والعربي عبر الغزو الفكري منذ عهود الاستعمار الفكري والعسكري للعالم الإسلامي.

والحديث الذي يكثر الاستدلال به على الوطنية من بعض الدعاة "مبتورًا" أخرجه ابن حزم في "المحلّى" من رواية أبي هريرة: "**قال رسول الله عليه السلام وهو في سوق الجزورة بمكة: والله إنك لخير أرض الله وأحب البلاد إلى الله ولولا أني أخرجت منك ما خرجت**" (حديث صحيح). وأخرجه ابن عبد البر في "التمهيد" من رواية ابن عبّاس: "**عن ابن عباس، قال**: **لمّا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة قال: أما والله إني لأخرج منك وإني لأعلم أنك أحب بلاد الله إلى الله، وأكرمه على الله؛ ولولا أهلك أخرجوني منك ما خرجت**. (حديث صحيح). فمعظم من يستدلّ به على شرعيّة النزعة الوطنيّة يورده مبتورا دون إيراد سبب محبّة الرسول صلّى الله عليه وسلّم لمكّة، وهو أنّ مكّة هي أحبّ بلاد الله إلى الله!

وحتّى لو كان سبب تعلّق الرسول عليه الصلاة والسلام بها هو محبّتها لأنّها وطنه الأوّل، فإنّ هذا لا يدلّ على شرعيّة النزعة الوطنية، لما بيّناه سابقًا من أنّ "حبّ الوطن" شيء غير "الوطنية"، وأنّه وإنْ كان من مقتضياتها ولكنّه تابع لها وليس أساسها ومحورها، بل أساسها ومحورها أنّها رابطة ولاء وانتماء على أساس الوطن، وأنّها تفرض واجبات ومحظورات على المواطن. وحبّ الوطن في الأصل نزعة فطريّة عميقة الأصالة، ليست الرابطة الوطنيّة المنحرفة عن منهج الله مختصّة فيه!

في النهاية أحبّ أن أقول: إنّ تغيير الواقع يبدأ من تغيير المفاهيم المخالفة للإسلام في أنفسنا، لا بإسبال ثوب الشرعية على ما يتقاطع مع الإسلام في "بعض" صفاته ثم يخالفه في الأساس! حتى لو كانت تلك المفاهيم عميقة الجذور وتمتد إلى عشرات السنين (كما هو حال الوطنية)، فقد واجه الإسلام في مرحلة النبوّة مفاهيم الكفر التي امتدت جذورها إلى قرون، فثقل الواقع لا يعطيه صفة الشرعية، بل هو يُعرَضُ على الشرع ليقرّه أو يرفضه، لا كي يُضفي عليه الشرعية، ولا كي يلتقي معه في منتصف الطريق!

الهوية الإسلامية والطائفيّة

حين يطرح المسلم هذا المفهوم الإسلاميّ للهويّة والانتماء، تثور دعوى عريضة من قبل العلمانيّين مفادها أنّ التفرقة بين الناس والانتماء إليهم على أساس الدين هو "طائفيّة" مذمومة؛ لأنّها لا تعمل حساب "الآخر" في الوطن الواحد، ولأنّها تفرّق بين أبناء الوطن الواحد وتجعل منهم طوائف متناحرة كلٌّ يعمل لمصلحته فتضيع بذلك الوحدة الوطنية!

ومع أنّ هذا الكلام لا يضير المسلم ما دام مستمسكا بمقتضيات عقيدته الواضحة الحاسمة، فإنّنا نريد إزالة الغبش الذي تحدثه هذه الدعوى في نفوس بعض "المنهزمين" من أبناء المسلمين؛ حيث تؤثّر فيهم هذه الدعوى والاتهام بالطائفية سلبيّا فيسارعون إلى الالتئام مع "الآخر"[70] في وحدة وطنيّة يكون محور الانتماء والاستقطاب فيها هو "الوطن" الواحد!

وفي حوار أجراه الأستاذ الداعية خبّاب بن مروان الحمد مع المفكّر الإسلامي الأستاذ الدكتور إبراهيم العسعس أجاب الدكتور على السؤال:

– "كثر المنادون بالوحدة الوطنية؛ بغض النظر عن الاختلافات العقدية، ويرى بعض المفكرين بأنّ هذا لا يخدم مبدأ الوحدة الإسلامية، بل إنه يحقق شيئاً من مراد الأعداء في رغبتهم في قلب المعركة بينهم وبين المسلمين إلى الوحدة الوطنية والقومية لإبعاد الروح الإسلامية؟

ج: أمّا أن ينادي المنادون بالوحدة الوطنية فهذا شأنهم، وأمّا أن تكون مقاصدُهم من وراء هذه الدعوة التخريب والاختراق فهم وما يريدون! لكنَّ الشأن كل الشأن في كيفية تعامل المسلمين مع هذه الدعوة، ومدى وعيهم على مقاصدها، وحنكتهم في استيعابها وهضمها وإدارتها من خلال ما يريدون، لا من خلال خطة الآخر! وبهذا يضمن المسلمون سلامة النتائج أياً كانت المقاصد. هذا الذي ينبغي أن يكون، ولكن - وللأسف - الكائن من أكثر المسلمين العاملين، وبعضهم له اتجاهات كبيرة لها وزنها، أنهم يتبعون كل ناعق ينادي بمثل هذه الدعوات. والحقيقة أنني وإن كنت لا أتهم النوايا في كثير من الأحيان، إلا أنني أقول: إن حسن القصد في مثل هذه القضايا المصيرية لا تنفع صاحبها، وقد قيل قديما: إن جهنم مليئة بأصحاب النوايا الحسنة.

إنّ أخطر ما في هذه الدعوات أنها تُميّعُ الطرح الإسلامي، وتُربك الدعاةَ فضلاً عن الأتباع والجماهير. وهي دليل على سذاجة من يتجاوب معها دون وعي، وحسن إدارة. وهي دليل على أننا نجهل أو نتجاهل وجود صراع فكري حامي الوطيس، وأننا نجهل أساليب الآخرين بإدارة هذا الصراع! وهي قبل كل شيء دليل على عدم وضوح ونضوج عالم الأفكار عندنا، ومن كان كذلك فهو سهل الانقياد، ساذج الوعي، ضعيف أمام الصنمية أياً كان شكلها، ولا عجب فإنه: "إذا غابت الفكرةُ ظهرَ الصنم"!

---

70 هو "الكافر" بالاصطلاح الإسلامي الشرعي، بجميع أنواعه: نصرانيا أو وثنيّا أو من أصحاب الفرق المرتدّة عن الإسلام أو ملحدا أو شيوعيّا. ولكنّ بعض الناس يهوون استخدام الكلمة بدلا من كلمة "الكافر" مخافة أن يتم اتهامهم بالتطرّف والطائفيّة! مع أن الكلمة مجرّد توصيف شرعي لغير المسلمين، فالكافر = غير المسلم.

وأعجب ما في الأمر أنّ الداعين الآن للوحدة الوطنية عندما كانت الجولة لهم، لم يكن المسلم يجرؤ على التصريح بمبادئه وكانوا يرفضون مجرد التعامل مع المسلمين، بل كانوا يحتقرونهم! ثم دار الزمان دورته فصارت الجولة للمسلمين، فإذا القوم يدعون للوحدة الوطنية، وإذا بعض المسلمين يقولون: لبيكم وسعديكم! والآن ترى في أكثر من بلد إسلامي، يشتغل بعضُ المسلمين رافعاتٍ للعلمانيين، ودعاة الوحدة الوطنية بعد أن كسدت بضاعتهم، وانفضّ سوقهم! والسبب الذي يدفع كثيرا من المسلمين إلى التجاوب إضافة لما ذكرته؛ الرغبة في كسب القلوب، واثبات أن المسلمين متنورون! وأحيانا يكون ضغط الواقع دافعا قويا حيث يخاف المسلمون من اتهامهم بأنهم ضد الوطن والوطنية! ثم هناك الحذر من الاتهام بأنهم أسرى التفسير البوليسي للأحداث! وهناك الاستعجال في تحقيق شيء ما في ظل النكسات التي يمر بها العمل الإسلامي فيندفع المسلم لقطف أي عرض حتى يشعر نفسه بتحقيق أي مكسب.

إنّ أهم نتائج هذا التجاوب توقف الدعوة إلى الله، وتجميد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالذي يريد الدخول في هذه اللعبة عليه أن يثبت استيعابه للآخرين، وبهذا يفقد حقه في الدعوة، لأنه لا يملك حق تخطيئ الآخرين! وبهذا يصبح الفكر الإسلامي فكرا من الأفكار الموجودة على الساحة، لا حق أكثر مما تمنحه إياه قواعد اللعبة التي وافق على دخولها.

وقبل أن أنهي أحبّ أن أنبه على أمر مهم، وهو أننا لسنا ضد التعامل مع الآخرين الذين يشاركوننا الوطن، والأرض، ولكن تحت أحكام الشريعة، ودون التنازل عن الثوابت والأسس. إننا لسنا مسؤولين عن هداية الناس على حساب الثوابت، ولكننا سنسأل عن اتباعنا لشريعة الله، وقد قال الله عز وجل لنبيه - صلى الله عليه وسلم - عندما واجه مثل هذه العروض والضغوطات: **"واتبع ما يوحى إليك، واصبر حتى يحكم الله، وهو خير الحاكمين"**. يعني لا تتنازل عن شيء رغبة منك بهداية الناس، وتجاوبا منك مع عروض الجاهلية كي لا تتهم بالجمود؛ بل اتبع الوحي، واصبر حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً"[71].

فالقضيّة أن الكثير من التوجّهات الإسلامية وقعت تحت ضغط الواقع وفرّطت بجوانب هامة من الهويّة الإسلامية، **مع أن التعاون مع التيارات الأخرى المسالمة في المجتمع لتحصيل حقوق معيّنة لا يستوجب أن نكون معها في "وحدة وطنية" تهمّش الهويّة الإسلامية كما يحدث في الواقع، بل التعاون ممكن بالضوابط الشرعية ودون الانخراط في وحدة على أساس الانتماء الوطني!**

ولتبيان حقيقة شبهة "الطائفية" و"الإقصاء" التي تثور في الأوساط العلمانيّة تجاه من ارتضى له هويّة إسلامية واحدة، وانتماءً إسلاميّا خالصًا غير مشوب بالنّعرات الجاهليّة الوطنيّة والقوميّة، لتبيان حقيقة هذه الشبهة وتهافتها أنقل بتصرّف يسير مقالاً لي كنت قد كتبته في الردّ على هذه الشبهة، بعنوان **"الطائفيون قادمون – الجزء الثاني"**[72]:

"يستنكر العلمانيون أن يكون خطاب المسلمين اليوم على أساس الإسلام، أو أن يقوم المسلمون بإنشاء جمعيات وكتل

---

71 من حوار أجراه الأستاذ الداعية خبّاب بن مروان الحمد منشور على موقع صيد الفوائد بعنوان "المفكّر الإسلامي إبراهيم العسعس: صراع الفكرة لا يحتمل أنصاف الحلول".

72 المقال منشور في مدوّنتي "مدونة أضواء" وعلى موقع "طلاب 48" في الشبكة، وهو يعالج حالة الداخل الفلسطيني.

وتنظيمات ومؤسسات "إسلامية"، ويصفون ذلك بأنه تنظيم للشريحة العربية في الداخل الفلسطيني على أساس الطائفية، وأنه قاصر على "المسلمين" فحسب، ويُقصي غير المسلمين من خطاب هذه الجمعيات والتنظيمات والمؤسسات، بينما الأصل هو توجيه الخطاب للشريحة العربية كلّها، من باب الحفاظ على وحدة الصفّ (الوحدة الوطنية)، والذي يجمعنا هو أننا جميعنا "عرب"، وليس جميعنا "مسلمين".. هكذا يقولون!

خطابنا للجميع.. وليس للمسلمين فحسب!

والواقع أنّه بإمكان أي إنسان مهما كانت عقيدته الاستماع إلى الخطاب الإسلامي، فإذا قبِله فإنه سوف يتّخذه منهجًا له في الحياة بطبيعة الحال. وهنا يفغر الكثير من الناس أفواههم متعجّبين من أن ندعو الناس من غير المسلمين إلى اتخاذ الإسلام عقيدة لهم ومنهجا في الحياة! ولا أدري ما المشكلة في ذلك ما دامت الدعوة لا تجبر أحدا على اعتناق الإسلام من باب **"لا إكراه في الدين"**؟ ولماذا يُتقبّلُ من العلمانيين دون استغراب أن يدعوا إلى مجتمع "علماني" وإلى مبدئهم العلمانيّ، ويعتبرُ ذلك حرية في التعبير عن الرأي، وحرية في طرح الأفكار على الناس؟! فإذا كان أصحاب الدعوة الإسلامية هم الذين يمارسون هذه الحريات فإنهم يصبحون "طائفيّين" و"إقصائيّين"! مع أنّ الإسلام خطّ أصيل في حضارة هذه الشعوب وهذه المنطقة، ومع أنّ العلمانية رافد دخيل نشأ أصلا في ظروف مغايرة لظروف الأمة بجمع طوائفها، ومع أنّ الأصل أن نستهجن الدعوة إلى القيم العلمانية وتبنيها في مجتمعاتنا وليس العكس! ولكن ماذا نقول إن كانت هذه هي طبيعة العلمانيين "الإقصائية" والمموّهة للحقائق؟!

إنّ كلّ إنسان مخاطب في هذه الدعوة الإسلامية، فإن لم يستجب للدعوة فإن أصحاب الدعوة لن يجبروه على شيء، ولن يتعاملوا معه بسلوك "الإقصاء"، إنما سيكون أحد مكوّنات المجتمع الموجودة واقعًا، وسيكون التعامل معه – إن كان مسالما – تعامل البرّ والقسط والرحمة وكما تدلّ النصوص الشرعيّة الحاسمة، بل وإنّ التعاون متاح في المشتركات دون تنازل الدعوة عن ضوابطها الإسلامية. فلنا أن نتساءل مرة أخرى: من أين التصقت شبهة "الطائفيّة" و"الإقصاء" في حسّ بعض المستغفلين؟ إنّه أحد أمرين: إمّا كيد العلمانيين من أعداء الإسلام، وإمّا جهل المستغفلين بدعوة أولئك العلمانيّين وشبهاتهم!

العلمانيون طائفيون!

تساءلنا سابقًا: لماذا لا يُتّهم العلمانيون والليبراليون بتهمة "الطائفية" و"الإقصاء" مع أنهم يدعون إلى رؤية في الحياة وقضاياها ومنهج ينبثق عن هذه الرؤية كما يدعوا المسلمون؟

إنّنا – مع الأسف – صِرنا إلى حال من الضعف والهزيمة النفسية بحيث أصبح الداعي إلى هذا المنهج المدمّر الدخيل على الأمة منزّها عن تلك الصفات مع أنها أصيلة فيه، وأصبحنا نحن أصحاب الدعوة الإسلامية ندافع باستحياء عن دعوتنا أمام من يصمها بتلك التهم! فلننظر بعين الواقع والموضوعية الآن ولنتساءل: من هو الطائفي؟ ومن هو الإقصائي؟

نحن نواجه الناس –جميع الناس– بخطاب إسلامي أصيل، يتوّجه إلى كيان الإنسان –كلّ إنسان– "الاختياري" (أفكاره وأعماله)، ولا تستثني أحدا من الناس أو نُقصيه عن دعوتنا، بينما أصحاب الاتجاه العلماني ذي الهوية "القومية" يتوجّهون في خطابهم إلى كيان الإنسان "الجبري" (قوميته التي لم يخترها ووطنه الذي نشأ به ولم يختره)، ومن هنا فإنهم يستثنون من

خطابهم أيّة قومية أخرى، حتى لو كانت أصيلة في هذه البلاد، فماذا عن "الشركس" المسلمين الذين يقطنون في الشمال الفلسطيني في قريتي "كفر كما" و"الريحانية" قبل الوجود اليهودي بفترة طويلة؟ أين هم من هذا الخطاب العلماني ذي الهوية القومية العربية؟!

وحين يجعل أولئك العلمانيون القضية الفلسطينية قضية "فلسطينية" بحتة، أو قضية "عربية" بحتة على أبعد تقدير، فإنهم يستثنون و"يُقصون" ربع سكان العالم المسلمين من وجودهم كخطّ أصيل فيها! مع أنّ قضية فلسطين بالنسبة إلى هؤلاء على درجة رفيعة جدّا من الأهمية، واختزال القضية في البعد الفلسطيني أو العربي فيه إقصاء لربع سكان العالم، وقبولهم كمتعاطفين أو مساهمين فحسب في دعم القضية هو مساواة لهم مع غيرهم من شعوب العالم، مع أنّ القضية ينبغي أن تكون في حسّهم أكبر مما هي في حسّ العربي أو الفلسطيني من غير المسلمين، لأنها متعلّقة بأهمّ ما لديهم في الحياة؛ متعلّقة بإسلامهم الذي هو أهمّ من أوطانهم وأقوامهم وعائلاتهم ومصالحهم الأرضية كلّها! فما هو مكان هؤلاء من الخطاب العلماني القومي؟!

تلك هي حقيقة التوجّه العلماني القومي إذن؛ أنّه خطّ "عنصري" و"إقصائي" بدلالة الحقائق الموضوعية لا بمجرد الشبهات البعيدة عن حقيقة الواقع!

وبعد..

وبعدُ، فإنّ هؤلاء العلمانيين يقولون: "ليس كل الناس من الشريحة العربية يؤمنون بما يؤمن به المسلمون، فعلينا ألا نواجههم بالخطاب الإسلامي"! وهي قولةٌ بيّنا تهافتها، ومع ذلك نقول أيضا: ليس كل الناس من الشريحة العربية يؤمنون بما تؤمنون به أيها العلمانيون، فبناء على منطقكم المغالط ينبغي ألا نوجّه لهم الخطاب العلماني أو الليبرالي أو القومي؛ لأنّ منهم فئة لا بأس بها ترفض العلمانية والليبرالية والقومية!

والمفترض أنّ طرح الأفكار دون محاولة فرض اعتناقها على الناس هو أمر لا شائبة فيه في فكر هؤلاء العلمانيّين، ولكنّهم مع ذلك يرفضون الخطاب الإسلامي لأنهم يعرفون في دخيلة أنفسهم أنّ الخطاب الإسلامي يملك رصيدًا "تاريخيّا" ضخمًا؛ إذ هو خطّ أصيل في هذه الأمة، وهم لا يملكون عشر هذا الرصيد! ويملك رصيدًا "فطريّا" في الكيان الإنساني؛ لأنّه من عند الله والإنسان من خلق الله، وهم لا يملكون هذا الرصيد، فأفكارهم كلها مستقاةٌ من العقل البشري في ظروف شروده عن الوحي الرباني لملابسات تاريخية نكدة يصعب حصرها في هذا المقام[73].

إنّ الذين يظنّون أنّ الإسلام مكوّن وراثيّ في هذه الأمة لا خيار فيه للإنسان واهمون! إنما الإسلام منهج رباني جاء من عند الله، وحملت نصوصه المحكمة أدلّة ثبوته العلمية القطعية[74]، وهو يوجّه خطابه إلى كلّ إنسان؛ إذ إنّ الغاية منه تعبيد الخلق لربهم وخالقهم، والله خلق جميع البشر ولم يخلق المسلمين فحسب!

وإنّ إحدى خصائص هذا الخطاب التي ينبغي للمسلمين أن يبادروا إلى إظهارها والافتخار بها هي أنّه متوجّه إلى الكيان

---

73 أنظر كتاب "مذاهب فكرية معاصرة" للأستاذ محمد قطب، ففيه تفصيل واف عن نشوء الكثير من المذاهب الفكرية الأوروبية التي انتشرت في العصر الحديث في بلاد المسلمين.

74 سنتحدّث عن هذه النقطة بعد قليل.

"الاختياري" للإنسان[75]؛ لأنه منهج مبنيٌّ على المبادئ، وكلّ إنسان مدعوٌّ إلى اتخاذ هذه المبادئ عقيدة ومنهج حياة. بينما الخطاب القومي يفتقر إلى هذه المبدئية التي يدعو إليها الإسلام. ومن طبيعة هذه الخصيصة في الخطاب الإسلامي تنبثق طبيعة أخرى، وهي طبيعة الانتماء إلى الناس.

فالمسلم لا ينتمي إلى العربي الفلسطيني لمجرد أنه "عربي" و"فلسطيني" حتى لو ارتدّ عن دين الله! والمسلم لا ينتمي إلى من حادّ الله ورسوله لمجرد أنه "عربي" و"فلسطيني"، والمسلم لا ينتمي إلى من ناصر قوى الجاهلية لمجرد أنه "عربي" و"فلسطيني"، إنما يدرك المسلم تمام الإدراك معنى قول الله تعالى: ﴿**قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبّ إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين**﴾ (التوبة: 24).

ومن طبيعة هذا الإدراك تكون طبيعة الخطاب والدعوة، وتكون طبيعة الانتماء[76]!

****

بقي لنا أن نبيّن بالأدلّة القاطعة أنّ الإسلام ليس مجرّد موروث يرثه المسلمون عن آبائهم دون اختيار! فللعلمانيّين دعوى عريضة في ذلك حيث يعتبرون "الإسلام" أمرًا وراثيّا جبريّا لم يكن للمسلم خيار فيه، وبناء على ذلك ليس لنا أن نفرّق بين الناس على أساس أديانهم، وإلا كانت هذه التفرقة "طائفيّة" مذمومة!

وسأنقل فقرات أخرى من مقال لي بعنوان **"الإسلام موقف"**[77] "بتصرّف"؛ لأبيّن تهافت هذه الدعوى التي يتبجّح بها العلمانيّون:

"العلمانيون من جهة، والجهلة من أبناء المسلمين من جهة أخرى، يتفقون على مغالطة كبيرة تمسّ أصلا من أصول الدين، ينبغي لكل مسلم أن يكون واعيا لها، عالما بالمفهوم الصحيح لموضوعها، مدركا لمقتضى ضبطه على الوجه الصحيح، وللآثار السيئة الناتجة عن تحريفه من قِبل أولئك العلمانيين أو جهلة المسلمين على السواء.

هذه المغالطة هي قولهم بأنّ الدين – كلّ دين – هو أمر وراثي، لا يختاره المرء، لأنه يولد على دين أبويه جبرا لا اختيارا. ويكفي في الردّ على هذا القول التذكيرُ بأنّ هناك ما يقارب خمسة آلاف بريطاني يدخلون في الإسلام – طواعية واختيارا – كلّ عام! وقد ولدوا إما على النصرانية أو على الإلحاد! فالأمر إذن ليس وراثيّا، وليس جبريا كما يدّعون.

بيدَ أنّي أحببتُ في مقالي هذا أن أبيّن أمرا ربّما غاب – للأسف – عن أذهان الكثيرين ممّن ولدوا بأسماء إسلامية ولأبوين مسلمين؛ وهو أنّ الإسلام قضية اختيارية؛ فهو إلى جانب كونه "دين الفطرة" لا يجوز الإيمان به دون علم وبرهان، حتى لو كان أبسط البراهين كما عند البسطاء من بدو البادية، فكلّ وفق مستواه الفكري، ولكنّ الشرط أن يكون اعتناقه للإسلام مبنيّا على برهان علمي وقناعة ولو كانت دلائلها يسيرة ممّا يدرك الإنسان بحواسّه من ظواهر الكون والحياة والإنسان، لا

---

75 ستتحدّث عن خصائص الهويّة الإسلامية في فصل قادم.

76 إلى هنا ينتهي النقل من مقالنا "الطائفيّون قادمون – الجزء الأول".

77 مقال منشور على مدوّنتي في الشبكة "مدونة أضواء".

بمجرّد التقليد للآباء أو الهوى والظن، وحشدٌ هائل من آيات كتاب الله العزيز يقرّ هذه الحقيقة المطلقة، فلنا أن نحيا مع معاني كتاب الله، فقد أنزله الله ليكون هاديا لنا، لا مجرّد ترتيل يُتلى، أو تعويذة توضع في العربات والبيوت!:

يقول تعالى في ذمّ من اتّبع المألوف والموروث والظنّ دون تمحيص العقل والعلم:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة: **170**).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ (لقمان: **21**).

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ (الأنعام: **116**).

﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى﴾ (النجم: **23**)

﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ (النجم: **28**).

فإذا كان الله – سبحانه – يذمّ الكفار على اتباعهم لدينهم بمجرد التقليد لما ورثوه وألفوه من الآباء، وينسب اتباعهم هذا إلى "الجهل" (لا يعقلون) و"الضلال" (لا يهتدون، يضلّوك عن سبيل الله) و"الظنّ" و"الخرص" و"الهوى"، فهل يمكن أن يكون دينه المنزل دون براهين علمية وموضوعية ينفي بها الجهل والهوى والظنّ والخرص والضلال عن أن تنسب إليه؟! وهل يمكن بعد هذا البيان أن نقول: إننا مسلمون لأنّنا ولدنا مسلمين فحسب؟! وبأنّ الدين أمر "وراثي"، والإيمان "لا يوجد دليل علمي عليه"! هل يُعقل هذا في دين الله؟! كلاّ والله! بل نزيد في البيان، ونستفيض في البلاغ، حتى يستقرّ الحق في تلك النفوس:

يصف الله سبحانه وتعالى دينه بال "علم"، ويذمّ اتباع الهوى دون علم: **﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾** (البقرة: **120**).

ويذمّ – سبحانه – الذين يجادلون بدون دليل علمي: **﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾** (الحج: **8**).

ويحرّم البتّ في أمر دون علم به: **﴿ولا تقفُ ما ليس لك به علم، إنّ السمع والبصر والفؤاد كلّ أولئك كان عنه مسؤولا﴾** (الإسراء: **36**).

ويطالب الكفارَ – أصحابَ المعتقدات الفاسدة – أن يأتوه بعلم أو برهان على ما يقولون: **﴿نبئوني بعلم إن كنتم صادقين﴾** (الأنعام: **143**).

﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا﴾ (الأنعام: **148**).

﴿أإله مع الله؟ قل هاتو برهانكم إن كنتم صادقين﴾ (النمل: **64**).

ويذمّ – سبحانه – اتباع الظنّ والأهواء والخرص دون دليل علمي:

﴿ما لهم به من علم إلا اتباع الظنّ﴾ (النساء: **157**).

﴿بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم﴾ (الروم: **29**).

﴿ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون﴾ (الزخرف: **20**).

﴿وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنّون﴾ (الجاثية: **24**).

وبعد هذا البيان من كتاب الله العزيز لا يكون للقارئ المنصف إلا التسليم بتلك الحقيقة؛ **أنّ دين الإسلام لا يقبل من المسلم إيمانا مبنيّا على الظن دون يقين، والتقليد للموروث دون علم، وأنّ كون التوحيد شيئًا مكنونًا في الفطرة ليس دليلا على جبريّته، بل إنّ هذا – خلافا لذلك – عاملٌ رئيسيٌّ في سلامة الاختيار، إذ تدفع الفطرةُ الإنسانَ إلى اختيار الدين الحق المنزّل من عند خالق الفطرة، فحينها يكون الاطمئنان الناتج عن توافق المنهج مع الفطرة؛ إذ كلاهما من مصدر واحد، فيكون التلاقي الفطريّ بين حقائق ثلاث: "الكون العابد لله" و"الفطرة السليمة" و"المنهج الرباني"، التلاقي الذي يؤكّد سلامة الاختيار بعد أن تناسقت تلك الحقائق الثلاث. وحقيقة كون الإيمان (بمعنى الهداية) من عند الله ولا يحصل بمجرد العلم والتصديق، وأنّ العلم والتصديق قد يحصل ولا يحصل الإيمان المطلوب من البشر، هذه الحقيقة لا تنفي قيام هذا الإيمان على أساس علميّ يقينيّ، لا مجال للتشكيك به.**

فقد ثبت إذن أنّ دين الله عزّ وجلّ ليس موروثا يتلقّاه الأبناء دون تمحيص العقل وأدوات العلم الموضوعية، ولئن كانت بعض خلائف المسلمين اليوم ترثُ دين الله كما كانت يهودُ ترثُ الكتاب دون علم ولا يقين ولا قناعة واختيار، فهذا الوضع ليس حجّة على الإسلام، إنما الإسلام بنصوصه الحاسمة المحكمة حجّة على هؤلاء!

ومن هذا المنطلق نقول إنّ دين الله عزّ وجل "موقف"، نعم، الإسلام موقف! موقف اختياريّ من قبل الإنسان المسلم، يتجلّى – أولا – في إفراد الله تعالى بالعبادة مع البراءة من الشرك، ثمّ ما ينبثق عن هذه الحقيقة الاختيارية من "أقوال" و"أفكار" و"أعمال"، فكان الإيمان كما عبّرت عنه الأجيال الأولى من المسلمين: قول وعمل؛ قول القلب واللسان، وعمل الجوارح.

إنّه موقف يبدأ من إيمان الإنسان بحقيقة وجود الله ووحدانيته، وبأنّه "الربّ"، أي: المربّي بالنعم. ثمّ ما تقتضيه هذه الحقيقة من إفراده – سبحانه – بالعبادة.

فالمسلم قد وحّد الربّ بذاته وصفاته وأفعاله، وهو توحيد الربوبية، أو التوحيد الخبري. ثمّ عبده بتوجيه شعائر التعبّد له وحده، وتحكيم شريعته وحدها في حياته كلها والتحاكم إليها والحكم بها، وولائه له وتولّيه المؤمنينَ وبراءته من الكافرين، وهو توحيد العبادة، أو توحيد الألوهية. ثمّ عمل بالتكاليف الشرعية، وتخلّق بأخلاق الإسلام.

هذه بمجموعها هي الإسلام، وهي مواقف كلّها تنبثق عن الموقف الأكبر وهو "الإسلام"، بمعنى: الاستسلام التام لله. فهو استسلام وخضوع اختياري لله عز وجل، بعد أن أدرك الإنسانُ أنّ الله حقّ، وأنّ عبادته – تعالى – هي غاية وجوده الإنساني: **﴿وما خلقتُ الجنّ والإنسَ إلا ليعبدون﴾ (الذاريات: 56)**، وأنّ طريقة تحقيق هذه الغاية تكون باتباع ما أنزل الله: **﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربّكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكّرون﴾ (الأعراف: 3)**. وليس هناك موقف

أضخم وأعظم من الإسلام، فبه تتعلق أضخم حقيقة واقعية بالنسبة لكل إنسان، وهي مكانته في الآخرة، التي هي الحياة الحقيقية الجديرة بالاهتمام، وما الدنيا إلا طريق لها محفوف بالابتلاءات: ﴿**وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾ (**العنكبوت: 64**). فالآخرة إذن أثقل واقع في حسّ المسلم، ومن الجدير بالاهتمام أنّ هذا الكمّ الهائل من الآيات التي تتحدّث عن اليوم الآخر في كتاب الله لم يرد – حاشا لله – عبثا، وإنما لكي يكون المسلم في تذكّر دائم لهذه الحقيقة العظيمة، وإنّه ليراها في كتاب الله أحيانا – حين يحيا به أثناء تلاوته – أقربَ إليه من دنياه التي يعيشها، بل يكاد يشعر حين يعيش تلك الآيات أنّ الدنيا شيء مضى، وأنّ الدار الآخرة هي الواقع الآنيّ المعاش!

ألا يكون مجرما – شديد الإجرام – هذا الإنسان الذي يتنكّب عن طاعة الله؟ أو ذلك الذي لا يُعمل عقلَه ويفكّر في غاية وجوده في هذه الحياة وبما قبلها وما بعدها؟ أليس هذا التعطيل للتفكير في أهمّ قضايا الوجود الإنساني "موقفًا" يجب أن يؤخذ بالحسبان حين نقوّم البشر؟ نعم، تعطيل التفكير في أهمّ قضايا الإنسان موقف، ورفض عبادة الله موقف، ومن خلال تلك المواقف الكبرى يقوّم المسلم "الأشخاص﴾ (المقصود: "كيانهم الاختياري" الذي هو: "الأفكار" و"الأعمال")، بمدى ارتباط هذا الكيان بالحقيقة الكبرى (الإسلام) وانبثاقه عنها، ومدى موافقته لمقتضياتها، وهذا هو محكّ القضية.

قضية **"الإسلام موقف"** ستجعلنا نحمل معيارا دقيقا لقياس الكثير من المسائل التي تعرض لنا في حياتنا، منها ما يتعلق بالانتماء والهوية، ومنها ما يتعلق بموقفنا من الأشخاص وتقييمنا لهم.

فحين يقول المسلم الجاهل بدينه: "إنّ النصارى المسالمين لنا هم إخواننا في الوطن، وإننا وإياهم سواء، ولا فرق بيننا، فهم أهل كتاب، ونحن مسلمون"! هل يكون هذا المسلم قد فهم أنّ "الإسلام موقف"؟ وأنّ النصراني هذا مرتكب لجريمة كبرى حين أشرك بالله وعطّل التفكير للوصول إلى الحق في أهمّ قضية في الوجود (عبادة الله) أو تنكّر للحق وجحده ورفض اتباعه. أيكون المسلم قد أدرك ذلك؟! أم إنّه لا يدرك أنّ معاملة النصراني هذا بالحسنى ومشاركته في بعض القضايا لا تعني المساواة بينه وبين المسلم العابد لله، ولا تعني وحدة الهوية والانتماء معه! فبيان حقيقة النظرة إليه من قبل المسلمين شيء ضروريّ حتّى يُدركَ عظم الجريمة التي يرتكبها في رفض طاعة الله والإسلام له! وإلا كنّا – برضانا عنه ومساواته مع المسلم – صادّين عن سبيل الله، فما الذي سيدفعه – من قبل المسلم – إلى البحث عن الحق والإقبال عليه ما دام المسلمون يعتبرونه مثلهم تماما؟! وحتى لا يُفهم الكلام أنه دعوة إلى العنف مع النصارى أو إلى شتمهم وتعنيفهم أورد كلاما لي كنتُ قد كتبتُه في مقال سابق دفعا لشبهة "الطائفية" التي يهوى العلمانيون قذف الآخر بها:

"وأما الآخرون الذي رفضوا عبادة الله عن طريق المنهج الذي ارتضاه لكل البشر (الإسلام)، فالمسلم يتعامل معهم بأخلاق دينه الحنيف، فيشعر بالرحمة تجاههم اقتداءً بالرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾ (**الأنبياء: 107**). ويعاملهم بالبر والعدل طالما كانوا مسالمين ولم يكيدوا له ويحاربوه في عرضه ودينه: ﴿**لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ (**الممتحنة: 8**). هذا بالنسبة للتعامل، أما بالنسبة للانتماء فهم قد رفضوا الانتماء إلى الله بعبادته وحده، لأنهم رفضوا اتباع منهجه للحياة، فالمسلم أمام حقيقة موضوعية تتمثّل في رفض هؤلاء الانتماء إلى ما ينتمي إليه فكيف ينتمي إليهم؟! إنهم في حسّه مرتكبون

لجريمة كبرى، وأيّة جريمة أكبر من التنكّب عن طاعة الله عزّ وجل الخالق الكريم المنعم المتفضّل على البشر بنعمة الخلق والإيجاد والرعاية؟! ﴿**وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون**﴾ (**الأنعام: 124**). إنها الغاية العظمى للبشر في تلك الحياة، أي إنها أخطر قضية في الوجود وأهم قضية! وكما تُقيَّم الجريمة في عرف القانون بحسب خطرها وعظم أمرها، فإنّ الجريمة الكبرى التي يمكن أن يرتكبها بشر على الإطلاق هي رفض طاعة الله والاستكبار عن اتباع رسله، وهي المسماة في الشرع: "الكفر". والنظرة الموضوعية لمدلول كلمة "الكفر"، هذه النظرة المتجاوزة لمجرد الفزع من وقع جَرْسِها كفيلةٌ بتصور قضية الكفر على حقيقتها دون إنشاء الخوف من العنف أو المعاملة بالسوء والاضطراب والتوجّس في النفس جرّاء ذلك. فاعتباري غير المسلم "كافرًا" لا يعني أنني سأشتمه أو أعنّفه أو أسيء إليه! إنما هو موقف "شعوري" أتّخِذه (ومن حقّي) – كمسلم عابد لله عزّ وجل – تجاه من استكبر عن عبادة الله ورفض اتباع رسوله صلّى الله عليه وسلّم، باعتبار أنّ هذا هو غاية وجوده الإنسانيّ. وأمّا التعامل فكما بيّنتُ يكون بالأخلاق الإسلامية، وبالبرّ والقسط، وبشعور الرحمة تجاه جميع البشر. والمسلم بعد ذلك يدعو هؤلاء إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، يدعوهم إلى عبادة الله وحده دون شريك من الأهواء أو الأصنام أو المعتقدات الفاسدة، يدعوهم بشعور الرحمة والإشفاق من تبديد هذا الكيان الإنسانيّ الكريم – وهو قادر "مخيّر" في أن يكون كريمًا مرتفعًا – إلى عبادة الله وحده بالمنهج الذي ارتضاه للبشر. بهذا الشعور النبيل يتوجه المسلم إلى غير المسلمين، بحيوية وإشراق، وبشعور الرحمة والعطف، ولسان حاله يقول: "إنتماؤكَ إلى الله ارتفاعٌ إليه"! فأيّة رفعة وأيّ سموق وأيّة كرامة تلك التي يمتلكها المسلم بين جنبيه ويريد للبشرية — بشعور الرحمة والعطف — أن تمتلكها هي أيضًا!"[78].

العلمانيون اللّبراليّون اليومَ يريدون تحريفَ هذه القضيّة، بدعوى "عدم الأدلجة" حينا (من كلمة "أيديولوجية")، وبدعوى "نسبية الحقائق" حينا آخر. فأما رغبتهم في تحييد "الأيديولوجية" فهي تكمن في أن النقاش الموضوعي محسوم فيها لصالح الإسلام، لأنه المبدأ الوحيد المنزّه عن الخطأ، والذي ترشد إليه كل الحقائق الفطرية والكونية صارخة بأحقّيّته! وأما قولهم بنسبية الحقائق فهو راجع لرغبتهم في إخفاء الأرضية الثابتة من "المشترك الإنساني"، لتكون الأمور كلها "مائعة" بعد ذلك، لا يمكن الجزم بصحّتها كما لا يمكن الجزم ببطلانها! فتضيع الطاسة بضياع "المشترك الإنساني" الذي يشكّلُ بديهياتٍ وأدواتٍ تتفق عليها العقول السليمة (بغضّ النظر عن دين أصحابها) تصلحُ أن تكون أرضية خصبة للنقاش الموضوعي الموصل إلى الحق، بيدَ أنهم لا يريدون هذا الحق! ﴿**يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾ (**الصف: 8 – 9**)[79].

****

تلك هي قضيّة الطائفيّة التي يتبجّح بها العلمانيّون، ويقع في براثن تبجّحهم هذا بعض ضعاف النّفوس من المسلمين؛ فيساوون بين المسلم والكافر بدعوى "الوحدة الوطنية" تماشيًا مع الواقع الضاغط عليهم! والأحرى بالمسلمين ألا يبالوا بهذه

---

78 من مقال بعنوان "حول الهوية الإسلامية" بتصرّف.

79 إلى هنا ينتهي النقل من مقالي "الإسلام موقف".

الدعاوى كلّها فهي مجرّد "فقاعات" أمام ما ينبغي أن يلتزمه المسلم من قضايا شديدة الصلة بعقيدته التي هي أغلى ما يملك في هذه الحياة.

خصائص الهويّة الإسلامية

سنتحدّث في هذا الفصل باختصار عن أهمّ خصائص الهويّة الإسلامية، والهدف من تبيان خصائص الهوية الإسلامية التي تميّزها عن غيرها هو لفت الأنظار إلى تلك الهوّة الكبيرة التي تفصل بين الهويّة الإسلامية وبين الهويّات الدخيلة الأخرى؛ حيث تبدو هذه الهويّات قزمة هزيلة وهي ترتع في المستنقع الآسن، وحيث تقف الهويّة الإسلاميّة شامخة سامقة في المرتقى السامي!

هويّة ربّانيّة:

"**صِبغة الله وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عابِدون؟**﴾ (**البقرة**: **138**).

الخصيصة الأولى التي تتميّز بها الهويّة الإسلامية، والتي تعطيها قيمتها العليا ورصيدها الأسمى هي أنّها هويّة "ربّانيّة"؛ بمعنى: أنّ الله –سبحانه وتعالى– هو الذي حدّدها لتكون رابطة التجمّع والانتماء للبشر. وقد توضّح هذا المعنى في الفصول السابقة حتى لم يعد لدى المنصف شكّ بأنّ الله –عزّ وجلّ– لم يُجِزْ للمسلمين بأن يتجمّعوا على رابطة انتماء سوى الإسلام. وحين يقرّر الله سبحانه في كتابه شيئًا لا يكون للبشر مجال لاختيار آخر، والهويّة والانتماء معانٍ حدّدها الله – سبحانه – في كتابه العزيز، فهي جزء من منهج حياتهم ينبغي لهم أن يتّبعوا شرع الله في تحديده؛ لأنّ البشر مهما أجهدوا أنفسهم في التفكير لن يستطيعوا تحديد منهج الحياة الأصلح لهم؛ "لأنّ وضع "منهج" صالح للحياة البشريّة يحتاج إلى جملة أمور يقصر عنها العلم البشريّ:

أولاً: يحتاج إلى معرفة حقيقيّة كاملة بالكيان البشريّ ذاته. والإنسان — على الرغم من كل العلم الماديّ الذي عرفه — ما يزال شديد الجهل بكيانه الذاتي (كما تؤكّد الأبحاث العلمية التي تجري على الإنسان)، وهو لذلك شديد الجهل بما يصلحه وما يصلح له.

ثانيًا: يحتاج إلى إحاطة كاملة بماضي الجنس البشريّ وحاضره ومستقبله، والتجارب التي خاضها وأسبابها ونتائجها. وهذا يستحيل استحالة كاملة على الإنسان؛ لأنّ كثيرًا من أحداث الماضي مجهول له، وهو عاجز عن الإحاطة بكل أحداث الحاضر الذي يعيشه، أما المستقبل فهو غيب موصد أمامه لا يستطيع الاطلاع عليه.

ثالثًا: يحتاج إلى أن يكون واضع المنهج غير متحيّز، لا مصلحة له في أمر من الأمور، ولا هوى ولا شهوات. وهذا أمر لا يتوفّر أصلاً في الإنسان، الذي ينجذب دائمًا إلى مصلحته الذاتية (كما يراها من وجهة نظره وكثيرًا ما تكون خاطئة) وتحركه دائمًا الأهواء والشهوات ما لم يلتزم بأمر الله: ﴿**إنّ الإنسان خُلِقَ هلوعًا * إذا مسّهُ الشرّ جزوعًا * وإذا مسّهُ الخيرُ منوعًا * إلا المصلّين**﴾ (**المعارج**: **19 – 22**).

رابعًا: ويحتاج واضع المنهج إلى علم كامل بمن يطيعه في السر العلن، وإلى قدرة تامة على مجازاة من يطيع ومعاقبة من يعصي حتى يكون المنهج محترمًا ومطبّقًا، وهذه الأوصاف لا تتوافر في الجنس البشري، فالإنسان لا يرى إلا في حدود ما تبصر عيناه، ولا يسمع إلا في حدود ما يبلغ سمعه. أمّا الله عزّ وجل فإنّه يعلم جميع ما يفعله الإنسان من خير وشر،

قال تعالى: ﴿**ألم تر أنّ الله يعلم ما في السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إنّ الله بكل شيء عليم**﴾ (**المجادلة:7**). والله عز وجل قادر على أن يجازي من أطاعه ويعاقب من عصاه على الدقيق والجليل، قال تعالى: ﴿**فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يَرَه * ومن يعمل مثقال ذرّة شراً يَرَه**﴾ (**الزلزلة: 7 – 8**).

ومن ثمّ فإن المنهج الصالح لا يمكن أن يأتي إلا من مصدر واحد هو الله تعالى. فالله هو الذي يعلم حقيقة الإنسان لأنّه هو الذي خلقه سبحانه: ﴿**ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير**﴾ (**الملك: 14**). والله هو الذي يعلم كلّ شيء في حياة البشر –وفي الكون كلّه– علم إحاطة واطلاع: ﴿**يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور**﴾ (سبأ: **2**). ﴿**عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرّة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين**﴾ (**سبأ: 3**).

والله هو الذي شرع التشريع الحكيم لأنّه هو الغنيّ القادر، وليس محتاجاً إلى شيء مما عند الناس وهو الواهب لهم كل شيء، وهو الذي لا يزيد في ملكه أن يكون الناس كلّهم على قلب أتقى رجل منهم، ولا ينقص في ملكه أن يكونوا على قلب أفجر رجل منهم كما يقول الحديث القدسي.

والهداية الربانية التي تشتمل على المنهج الصالح لحياة البشر طريقها هو "الوحي" عن طريق الرسل والرسالات. ومن ثمّ تصبح الرسالة حاجة بشرية لا غنى عنها، ولا استقامة لحياة البشر بدونها. ﴿**لقد أرسلنا رسلنا بالبيّنات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط**﴾ (**الحديد: 25**)"[80].

ولذلك فلا يستقيم حال البشر إن هم أعرضوا عمّا وضعه الله لهم من منهج يضبط حياتهم، ومن ضمن هذا المنهج قضايا الهويّة والانتماء، فلا ينبغي أن تكون إلا بما يرضي الله عزّ وجل، أي بميزان الإسلام، فهي بذلك "هويّة ربّانية"، تستند أصولها إلى الوحي الإلهي، لا عقول البشر القاصرة.

هويّة إنسانيّة:

والهويّة الإسلاميّة هي هويّة "إنسانيّة"، بمعنى أنّها الهويّة الوحيدة التي تحقّق إنسانيّة الإنسان؛ لأنّها الوحيدة التي تلائم الإنسان باعتبارها هويّة هذه الفطرة الأصيلة. فالفطرة من خلق الله سبحانه، والهويّة حدّدها الله، فيكون هذا التلاقي المتناسق بين الهويّة والفطرة أجمل تلاق يمكن أن يعرفه إنسان!

إنّ الجهة التي تصنع أيّ جهازٍ أرضيّ هي الأعلم من بين البشر بما يلائم هذا الجهاز من تعليمات التشغيل، ولله المثل الأعلى؛ فالله –سبحانه– خالق الإنسان هو الأعلم بما يحقّق له إنسانيّته. ولنقرأ هذه الفقرات الرائعة للأستاذ محمّد قطب من كتابه "**منهج التربية الإسلامية**":

"تلتقي مناهج التربية الأرضية على أنّ هدف التربية هو إعداد "المواطن الصالح". وتختلف الأمم بعد ذلك في تصور هذا

---

80 من مقال لي بعنوان "ما بعد الحداثة: من العقل إلى الوحي"، وهو مستفاد من كتاب "ركائز الإيمان" للأستاذ محمد قطب.

المواطن وتحديد صفاته. فقد يكون هو الجندي الشاكي السلاح، المتأهب في كلّ لحظة للوثوب سواء للعدوان أو لردّ العدوان. وقد يكون هو الرجل الطيب المسالم الذي لا يحبّ الاعتداء على أحد، ولا اعتداء أحد عليه. وقد يكون هو الناسك المتعبّد الذي يهجر الحياة الدنيا وينصرف عن صراع الأرض الكريه. وقد يكون هو العاشق لوطنه المجنون بعنصريته. وقد يكون.. وقد يكون.. ولكنها تشترك كلها في شيء واحد، في إعداد "المواطن الصالح".

أمّا الإسلام فلا يحصر نفسه في تلك الحدود الضيقة، ولا يسعى لإعداد "المواطن" الصالح، وإنما يسعى لتحقيق هدف أكبر وأشمل، هو إعداد "الإنسان" الصالح.

الإنسان على إطلاقه، بمعناه الإنساني الشامل. الإنسان بجوهره الكامن في أعماقه. الإنسان من حيث هو إنسان، لا من حيث هو "مواطن" في هذه البقعة من الأرض أو في ذلك المكان.

وذلك معنى أشمل ولا شك من كل مفهوم للتربية عند غير المسلمين.

***

منذ الخطوة الأولى، في العهد المكّيّ، والمسلمون قلّة قليلة تعدّ بالأفراد. قلّة مطرودة من كلّ حمى إلا حمى الله، محرومة من كل قوة وكل سلطان.. يقرّر القرآن عالمية الدعوة الإسلامية وإنسانيتها، فيقول في سورة مكية من أوائل السور: سورة التكوير: ﴿**إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ**﴾.

"لِلْعَالَمِينَ" منذ أوّل خطوة. لا للعرب، ولا لأهل مكّة، ولا لقريش. للعالمين كلّهم في كلّ بقاع الأرض، لا فرق بين أعجميّ وعربيّ في ميزان الله إلا بالتقوى والهدى: ﴿**وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾.

دعوة لا تعرف حدود الوطن ولا العنصر ولا القبيلة ولا الأسرة. لا تعرف حاجزًا واحدًا من الحواجز المصطنعة التي يقيمها الناس لأنفسهم في الأرض، ويتصارعون من داخلها على الغلبة والسلطان.

دعوة لا تقسم الناس طوائف، ولا تقسمهم ألوانًا ولا عناصر. وإنما تنفذ إلى قلوبهم مباشرة، حيث يكمن "الإنسان". الجوهر الفذّ الذي تتكون منه الإنسانية"[81].

هويّة كونيّة:

وكما أنّ الهويّة الإسلاميّة هويّة "إنسانيّة" لتناسقها مع الفطرة وتلبيتها لاحتياجاتها، فإنّها كذلك "هويّة كونيّة"؛ فهي هويّة هذا الكون العابد لله عزّ وجل، الكون الذي خلقه الله –سبحانه– وأودعه السنن التي يتحرّك بها في تناسق لا يشوبه اضطراب يختلّ به نظامه:

يقول تعالى: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**﴾ (**فصّلت: 11**) ويقول تعالى: ﴿**إنّما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون**﴾ (**النمل: 40**). ويقول تعالى: ﴿**وخلق كلّ شيءٍ فقدّرهُ تقديرًا**﴾ (**الفرقان: 2**).

---

81 الأستاذ محمد قطب، منهج التربية الإسلامية.

إنّ هذا الكون لا يعرف إلا دينا واحدًا هو "الإسلام" لله عزّ وجلّ: ﴿**أفغير دين الله يبغون؟ وله أسلمَ من في السماوات والأرض طَوْعًا وكَرْهًا وإليه يُرجعون**﴾ (**آل عمران: 83**). ومن ثمّ فإنّه لا يعرف إلا هويّة واحدة؛ هي "الهويّة الإسلاميّة". وتحقيق الهويّة الإسلاميّة عند الإنسان ينشئ هذا التناسق الفريد بين هويّته وهويّة الكون الذي يعيش فيه، وإلا فهو الفساد الكبير: ﴿**وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ**﴾ (**المؤمنون: 71**).

هويّة اختياريّة:

والهويّة الإسلامية هي كذلك "هويّة اختياريّة"، بمعنى: أنّ الإنسان – كلّ إنسان – مخيّر في جعلها هويّته حين يرتضي الإسلام عقيدة ومنهجا في الحياة، بعكس الهويّات الدخيلة "الجبريّة" الأخرى كالقوميّة والوطنيّة والتي لا يختارها الإنسان، وإنّما يتفتّح ذهنه للوعي وهي لاصقة به لا فكاك له منها!

وقد تقدّم معنا في الفصل السابق توضيح هذا المعنى بما لا يحتاج إلى مزيد بيان. ولكنّنا نقول في كلمة موجزة: إنّه لظلمٌ كبيرٌ أن يكون انتماؤنا للناس بحسب صفات ورثوها منذ أن ولدوا أو من بيئتهم التي نشأوا فيها، كأن يكون "الوطن" هو هويّتهم، أو تكون هي "العرق" الذي انحدر منه نسبهم، أو هي "اللغة" التي رضعوها منذ أن كانوا أطفالا من أبويهم. إنها صفات لاصقة بالإنسان لا خيار له فيها، ولذلك لا ينبغي أن يكون لها أيّ اعتبار حين نحدّد انتماءنا للبشر، فالانتماء يجعلنا نفاضل بين الناس ونقدّم بعضهم على بعض؛ فالذي ننتمي إليه هو المقدّم عندنا وهو المحبّب أكثر من غيره ممن لا ننتمي إليه، وهنا يقرّر الإسلام أمام هذه الانتماءات الجبرية الجاهليّة أنّ مواقف الإنسان الاختياريّة من أفكار وأعمال هي التي تحدّد انتماءنا إليه، وأكبر هذه المواقف وأضخمها موقفه من غاية وجوده: هل يكون عابدا لله ملتزما بأوامره؟ أم يكون منتكسًا ومُعرضًا عن عبادته؟ فينتمي المسلمُ للإنسان المسلم الذي يعبد الله وحده ويلتزم بأوامره ونواهيه، ويتبرأ من الإنسان الكافر الذي أعرض عن عباده الله وتنكّب طريقه. ولكنّه في تعامله مع الناس – كلّ الناس – بغضّ النظر عن انتماءاتهم يتحاكمُ إلى شريعته؛ فتكون أخلاق المسلم المفعمة بالبرّ والقسط والعدل والرحمة والتي عرفتها البشريّة على مدى تاريخ طويل هي التي تصبغ تعامله مع الناس؛ مسلمين كانوا أم كفّارًا. بعكس ما نراه أحيانا من عصبيّة جاهلية وعنصريّة مقيتة في سلوك أصحاب الرايات القوميّة والوطنيّة[82].

هويّة ثابتة ومتكاملة:

إنّ الهويّات الدخيلة كالقوميّة والوطنيّة هي في الحقيقة هويّات "مبهمة" و"شائهة"، لا تستطيع أن تقوم بما تقوم به الهوية الإسلامية من تأثير عميق على النفس البشرية، ينبع من احتوائها على رصيد كبير وشامل من "القيم" التي تتكامل فيها "المنطلقات" و"الأهداف" و"المعايير"، بينما تفتقر هذه الهويات الدخيلة إلى هذا التكامل في القيم، بل إنها (علميًا) لا تحمل أي رصيد من "القيم" يمكن الإشارة إليه؛ لأنّها هويات "مائعة" لا تنبثق عنها قيمٌ واضحة تحدّد "الأهداف" الإنسانية

82 أنظر كنموذج لذلك الصراعات الدموية التي تحدث في مباريات كرة القدم، وأبرزها في الآونة الأخيرة الصراع بين المصريين والجزائريين! فإذا كان الأمر كذلك على هذه التفاهات، فكيف هو في عظائم الأمور؟!

و"المعايير" و"المنطلقات"، فالعربيّة عنصر من عناصر الثقافة الإسلامية، أو عرق ينتسب الإنسان إليه، والوطن مكانٌ ينشأ فيه الإنسان ويقيم، والعربية (كعنصر أصيل من عناصر الثقافة الإسلامية) مجرد وعاء للفكر لا ينطوي (وحده) على أيّة مفاهيم أو قيم، وإذا زعمنا له ذلك لم تكن هذه المفاهيم في الحقيقة نابعة من "العربية" كلغة أو قوميّة، وإنما هي من بنات أفكارنا، أو هي إفرازات اجتماعية تتشكل بحسب الواقع نزعم لها أنها "قيم عربية" أو "تقاليد عربية". وفي هذه الحالة المائعة – مع اختلال الموازين – تفتقد هذه الهويّات فاعليّتها في إيجاد التمحور الأصيل الثابت الفاعل في الحفاظ على ثقافة الإنسان ومعاييره وأهدافه في الحياة.

والهوية الإسلامية تنطوي على "منهج" متكامل يحوي في معطياته "المنطلقات" و"الأهداف" و"المعايير" الواضحة الثابتة.

فأما "**المنطلقات**": فالإنسان الحامل لها قد حدّد موقفه من نفسه قبل تحديد موقفه من غيره: **من هو؟** هذا الحسم في الهوية الذاتية هو الذي ينشئ المواقف الفعالة من أي قضيّة من قضايا مصيره ونهضته وحياته الكريمة، ومنها على سبيل المثال قضية "التغريب" الثقافي واللساني.

"**الأهداف**": فإذا تحدّدت منطلقاته ووضحت، انتقل إلى الإجابة على السؤال: **ماذا أريد؟** والمسلم المتشبّع في فهمه وممارسته بدين الله عزّ وجلّ يعلم أن "العبادة" هي الغاية الكبرى لخلقه كما تدلّه نصوص القرآن والسنّة الحاسمة، فيتحرك في مجتمعه يعمّر الأرض بمقتضى المنهج الرباني، ويكون كلّ نشاط له وكل سلوك مسبوق بالسؤال: كيف يكون ذلك النشاط أو هذا السلوك عبادةً لله تعالى؟

"**المعايير**": ويكون "المنهج الإسلامي" المتمثل بالنصوص القاطعة في الكتاب والسنّة والإجماع، ومعطيات الاجتهاد المنضبط بأصوله هو السبيل لتحقيق هذه العبادة، أي الالتزام بطاعة الله عزّ وجلّ في كلّ الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، وفقًا لمنظومة الواجبات والمحرّمات والمندوبات والمكروهات والمباحات.

هويّة أصيلة:

ونختم هذا الفصل بالحديث عن خصيصة أخرى تتميّز بها الهويّة الإسلامية، وهي أنها "هويّة أصيلة"، على اعتبار أنّها الهويّة الوحيدة التي لها هذا العمق الراسخ في تاريخ الأمّة الإسلاميّة، مفهومًا وتطبيقًا. ولم تعرف الأمّة في تاريخها الطويل على مدى ثلاثة عشر قرنًا من الزمان أيّ تجمّع على أساس القوميّة أو على أساس الوطنيّة، وإنّما هي هويّات دخيلة دلفت إلى العالم الإسلامي عبر الغزو العسكري والفكري منذ أن بدأت الدولة العثمانيّة بالانهيار. وهذا الرصيد الضخم من الأصالة والذي تتمتّع به الهويّة الإسلامية لهو عامل قويّ على استعادة هذه الأمّة الإسلاميّة لأمجادها الغائبة، فذكريات المجد والعزّ لا زالت تلوح لأبناء الأمّة، وواجب الوحدة لا زال متمثّلا في الذاكرة الجماعيّة لهم، وأمّا أصحاب الأفكار القوميّة الوطنيّة فرصيدهم من الذاكرة موزّع بين تاريخ التجربة الأوروبيّة مع الكنيسة ونشوء القوميّات هناك، وبين الملابسات النكدة التي أسفرت عن تمزيق العالم الإسلامي وتجزئته إلى أقطار متفرّقة مشرذمة من قبل المحتلّ الكافر! فليهنأوا إذن بهذا الرصيد من التاريخ لهويّاتهم التي يدعون إليها!

مقتضيات الهويّة الإسلامية

ليسَ الحديثُ عن الهويّة الإسلامية ترفًا فكريّا، ولا هو مجرّد "تنظير" أبتغي به إضافة جديدة على المكتبة الإسلامية دون أن يكون لها آثار فاعلة في واقع الفرد والجماعة. وإنّما الحديث عن الهوية الإسلامية هو أداء لواجب البلاغ المبين في هذا الموضوع الذي شابه الغبش والانحراف في العهود الأخيرة. وواجب البلاغ لا يغني عن التطبيق نعم، ولكنّ التطبيق لا بدّ له من "مفهوم" يُبنى عليه، ولا بدّ لهذا المفهوم أن يكون "شرعيّا" منبثقا من الكتاب والسنة، وقد اجتهدتُ في هذا الكتاب أن يكون التأصيل لهذا المفهوم إسلاميّا بقدر ما يلمس القارئ الكريم.

والهويّة الإسلامية هي بذاتها أحد مقتضيات الإسلام، وهي في بعدها الفرديّ -كما بيّنا- مصطلح حديث يقصد به الإجابة عن أسئلة الفرد حول هويّته الفردية: من هو؟ وما هي أهدافه؟ وما هو "المعيار" الذي يرجع إليه في أموره؟ وفي بعدها الجماعي هي التعبير عن محور الاستقطاب والانتماء الذي تتجمّع حوله أمّة من الأمم. وبذلك تكون الهويّة الإسلامية ببعديها (الفرديّ والجماعيّ) جزء من مقتضيات الإسلام.

ولا نريد في هذا الفصل استيفاء كلّ ما يمكن أن تقتضيه الهويّة الإسلامية، ولكنّنا نحبّ أن نبيّن أبرز ما تقتضيه في بعدها "الفرديّ" من ناحية، وفي بعدها "الجماعيّ" من ناحية أخرى. وقبل ذلك نقول: إنّ المقتضى الأهمّ لتصحيح مفهوم الهويّة هو أنّها شديدة الصّلة بركن الولاء في عقيدة المسلم، وقد بيّنا هذا في الفصول الأولى من الكتاب فلتراجع، وإنّ تصحيح مفهومها عند المسلم وإزالة الغبار الذي غشّاها والغبش الذي اعتورها مع دخول الهويّات القوميّة والوطنيّة لهو مهمّة عظيمة، فهو يعني تصحيحًا لعقيدة المسلم التي ينبغي أن تكون خالصة صافية لا تشوبها شائبة، وحين ينصرف ولاء المسلم لهذه الأوثان المعاصرة كالوطن أو القوم فإنّه يلقي بنفسه إلى التهلكة في الآخرة! وإنّ النجاة في الآخرة لهي أولى الأولويّات التي يهدف إليها المسلم في حياته. فتصحيح مفهوم الهويّة مرتبط بشكل وثيق بهذا البعد العقديّ وبالقضيّة الكبرى التي هي النجاة في الآخرة، فالحديث عنها له ثقل كبير بالنسبة للمسلم، وينبغي أن يوليها اهتمامًا وجدّية كبيرين في حياته، خصوصا بعد أن انتشر ما يلبّس على المسلمين أمر دينهم في قضيّة الولاء.

والموضوع الأبرز في البعد الفردي للهويّة الإسلامية هو "الأخوة"، والأخوة بين المسلمين قيمة عظيمة الشأن ينبغي أن تظلّ حاضرة في حسّ أفراد هذه الأمة، فغيابها أدّى إلى انتشار الكثير من الأمراض وتفشّيها في النفوس.

قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: **"لا تحاسدوا. ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض. وكونوا عباد الله إخوانا. المسلم أخو المسلم. لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره. التقوى ههنا، ويشير إلى صدره ثلاث مرات. بحسب امرئ من الشرّ أن يحقر أخاه المسلم. كلّ المسلم على المسلم حرام. دمه وماله وعرضه"**[83].

هذه هي علامات الأخوة الحقيقيّة؛ فلا يحسد المسلم أخاه المسلم، ولا يتناجش معه، ولا يبغضه، ولا يتدابر معه، ولا يبيع

83 صحيح مسلم، من رواية أبي هريرة.

على بيعه، ولا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره. فلا يكفي التغنّي بالأخوة الواحدة والهويّة الواحدة، وإنّما لهذه الأخوة في الله مقتضيات واقعيّة ثقيلة على النفس ينبغي أن يربّي المسلم نفسه على أدائها على الوجه المطلوب.

يقول الأستاذ محمّد قطب في كتابه **"واقعنا المعاصر"** في فقرات تحت عنوان **"تحقيق معنى الأمة بمعناه الحقيقي"** مبيّنا نماذج من التطبيق الحقيقي لمعاني الأخوة في الجيل الأوّل من المسلمين:

"كان الصحابة رضوان الله عليهم يسير الاثنان منهم فى الطريق فتفصل بينهما أثناء المسير شجرة فيعودان فيسلم أحدهما على الآخر شوقا إليه من تلك اللحظة التى فصلت بينهما في الطريق!

وبكى أحد الصحابة حزنا لأنه فكر في فراق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فى الدار الآخرة وهو لا يطيق فراقه فى الدنيا، فأنزل الله قوله فيه: ﴿**وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً**﴾ **[سورة النساء 4/69]**.

ولما هاجر الرسول صلّى الله عليه وسلّم إلى المدينة آخى بين الأوس والخزرج، فذاب ما بينهما من نزاع وصراع استمر ذلك المدى من الزمن الذى لا يعلمه إلا الله، وصار بينهما ذلك التآلف والإخاء الذى منّ الله به عليهم: ﴿**وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانا**﴾ **[سورة آل 3/103]**.

ثم آخى بين المهاجرين والأنصار تلك المؤاخاة العجيبة الفريدة فى التاريخ؛ حيث كان الأنصار يتنازلون عن شطر ما يملكون للمهاجرين عن طيب خاطر، وعن غير إلزام ألزمهم به الله ولا رسوله صلّى الله عليه وسلّم، ويؤثرونهم أحيانا على أنفسهم حتى أنزل الله فيهم: ﴿**وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ**﴾ **[سورة الحشر 59/9]**.

إنّه ذلك الحبّ الذى ينشئه رباط العقيدة، ولا يملك رباط آخر أن ينشئه على هذا النحو الوثيق العميق الشفيف الذى يصل إلى درجة الالتحام؛ لأنه لا يصطدم بالسياج الزائف الذى تقيمه "الأنا " حول ذاتها فى جاهليات البشرية.

ولم تكن تلك المؤاخاة طبقية تقوم بين "شريف" و"شريف"، ولا مؤاخاة قومية أو عرقية تقوم بالضرورة بين عربيّ وعربيّ.. إنما كانت مؤاخاة بين "مسلم" و"مسلم" بصرف النظر عن الجنس أو اللون أو اللغة أو الوضع الاجتماعى؛ لأنها الأخوّة التى قال الله عنها: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إخوة**﴾ **[سورة الحجرات 49/10]**. تربط القلوب برباط الإيمان بصرف النظر عن كل رباط آخر.

فقد آخى الرسول صلّى الله عليه وسلّم بين عمّه حمزة ومولاه زيد، وبين أبي بكر وخارجة بن زيد، وبين ابن رواحة الخثعميّ وبلال بن رباح.. والتقى في بوتقة العقيدة التي صهرت كل فوارق الجنس واللون واللغة بلالُ الحبشى، وصهيبُ الرومى، وسلمان الفارسى، مع أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ وسائر الصحابة رضوان الله عليهم. بل قال رسول الله صلّى الله عليه

وسلّم: "**سلمان منا آل البيت**"[84]. وقال عمر رضى الله عنه عن أبي بكر وبلال رضي الله عنهما: "**أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا**"[85].

ويقول الأستاذ محمّد قطب في نفس الكتاب في حديث رائع عن معاني الأخوة الإسلامية في أوقات الشدّة:

"يقول سبحانه وتعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾ **[سورة الحجرات 49/10]**.

والأخوّة من أجمل "المعاني" التي يمكن أن يتحدّث عنها الإنسان! شفيفة لطيفة كالنور! نديّة محبّبة إلى القلوب. ولكن ما "الأخوّة" التي وردت الإشارة إليها في كتاب الله؟

يستطيع اثنان من البشر وهما يسيران في الطريق الواسع –في الأمن والسلامة– أن يتآخيا! أن يسيرا معاً وقد لفّ كلٌّ منهما ذراعه حول أخيه من الحبّ.

ولكن انظر إليهما وقد ضاق الطريق، فلا يتّسع إلا لواحد منهما يسير وراء الآخر. فمن أقدّم؟ أقدم نفسي أم أقدم أخي وأتبعه؟

أم انظر إلى الطريق قد ضاق أكثر. فلم يعد يتّسع إلا لواحد فقط دون الآخر!

إنها فرصة واحدة.. إمّا لي وإمّا لأخي.. فمن أقدّم؟ أقول: هذه فرصتي، وليبحث هو لنفسه عن فرصة؟ أم أقول لأخي: خذ هذه الفرصة أنت، وأنا أبحث لنفسي؟!

هذا هو "المحك".

إنّ الأخوة في الأمن والسلامة لا تكلّف شيئاً! ولا تتعارض مع رغائب النفس. بل هي ذاتها رغبة من تلك الرغائب يسعى الإنسان لتحقيقها مقابل الراحة النفسية التي يجدها في تحققها.

أمّا في الشدّة –أو في الطمع– فهنا تختبر الأخوة الاختبار الحق، الذي يتميّز فيه الإيثار والحبّ للآخرين، من الأثرة وحبّ الذات، التي قد تخفى على صاحبها نفسه في السلام والأمن، فيظنّ نفسه "أخاً" محققاً لكل مستلزمات الأخوة!

كم جلسةً.. كم درسًا.. كم موعظةً.. كم توجيهًا.. يحتاج إليها الإنسان الفرد، وتحتاج إليها الجماعة، وتحتاج إليها "القاعدة" ليرسخ في حسّهم جميعاً هذا "المعنى" فلا يعود حقيقة ذهنية يستوعبها الذهن ثم ينتهي بها المقام هناك. إنما تتحول إلى وجدان قلبيّ، يتعمّق في القلب حتى يصدر عنه سلوك عمليّ كذلك الذي ورد ذكره في كتاب الله:

﴿**وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ**﴾ **[سورة الحشر 59/9]**.

إنّه لمثل هذا كان يعمل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو يربّي أصحابه رضوان الله عليهم، ثلاثة عشر عاماً في مكّة، وسنوات في المدينة بعد ذلك"[86].

---

(84) رواه الحاكم في المستدرك (3/598).

85 واقعنا المعاصر، الأستاذ محمد قطب.

86 واقعنا المعاصر، الأستاذ محمد قطب.

والهويّة الإسلاميّة ليست شعارًا نتغنّى به دون أن يكون لها تأثير في سلوكنا، فالمسلم الذي يفخر بهويّته الإسلاميّة عليه أن ينضبط في سلوكه بما يقتضيه "الإسلام" الذي يفخر بانتسابه إليه، وإلا فإن كانت الهويّة الإسلاميّة مجرّد شعار يتنادى به، والسلوك منتكسٌ عن مقتضيات هذا الشعار، فإنّ هذا المسلم المدّعي حملَها يكون قد أدّى أسوأ شهادة يمكن أن يقدّمها مسلم تجاه دين الله عزّ وجلّ!

ونكتفي بهذا القدر من بيان ما تقتضيه الهويّة الإسلامية من أخوّة بين المسلمين، وننتقل للحديث عن أبرز المعاني التي تقتضيها الهويّة في بعدها الجماعيّ.

****

أحد أبرز المعاني التي تقتضيها الهويّة الإسلاميّة (وبالإساس يقتضيها الإسلام) بالنسبة لعموم الأمّة الإسلاميّة هو "الوحدة" بمفهومها الشامل الذي تكون فيه هذه الأمّة جسدًا واحدًا، وكيانا واحدًا، شعورًا وممارسة.

فالمسلم ينتمي إلى أمّته المسلمة كلّها، من أقصى شرقها إلى أقصى غربها، ومن أقصى شمالها إلى أقصى جنوبها، لا يهمّه اختلاف البلاد والأماكن التي تعيش فيها هذه الأمّة. وعلى المسلمين أن يسعوا إلى إعادة كيانهم السياسي والاجتماعي المسلوب في عصر انحطاطهم هذا، فقد أجمع علماء الأمّة قديمًا وحديثًا أنّ هذه الأمّة ينبغي أن يكون لها كيانٌ سياسيّ واحدٌ يحكمه إمامٌ واحد، وبهذا يتجسّد المقتضى الواقعيّ الجماعيّ للهويّة الإسلاميّة كما ينبغي أن يكون. ولا خلاف بين المعتبرين من علماء الأمّة على وجوب إعادة هذا الكيان الجامع للأمّة.

وكذلك من مقتضيات الهويّة الإسلاميّة ببعدها الجماعيّ أن يشعر المسلم بالمسؤوليّة تجاه أمّته، فالاعتقاد السائد عند كثير من الناس هو أنّ النجاة الأخرويّة تكون بمجرّد الالتزام الفرديّ بهذا الدين أداءً للطاعات وبعدًا عن المعاصي، من دون أن يكون للمسلم دخلٌ بأفعال إخوانه في الأمة الإسلامية. وهذا الاعتقاد خاطئ، يخالف النصوص الشرعية المحكمة الواضحة في بيان مسؤولية الفرد المسلم تجاه أفعال غيره من المسلمين، ولنعرضْ بعض النصوص في بيان هذا الواجب التكافلي التضامني الجماعيّ للمسلم مع غيره من إخوانه المسلمين:

يقول الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم: "**المسلمون تتكافأ دماؤهم يسعى بذمّتهم أدناهم ويجير عليهم أقصاهم وهم يدٌ على من سواهم يردّ مشدّهم على مضعفهم ومتسرّيهم على قاعدهم لا يقتل مؤمن بكافر ولا ذو عهد في عهده**"[87].

وهذه الواجبات يحتاج فيها الفرد المسلم إلى "التعاون" مع غيره من المسلمين، ولا يُتَصَوَّرُ القيام بها بمفرده، فيسعى المسلمون بذمّة إخوتهم، ويكونون سويّا على من سواهم يردّ مشدّهم على مضعفهم.

يقول تعالى: ﴿**وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ (**الأنفال: 25**).

ويقول ابن جرير الطبري في "**جامع البيان**": "حدثني المثنى، قال: ثنا أبو صالح، قال: ثنا معاوية، عن عليّ، عن ابن عباس: ﴿**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خاصَّةً**﴾ قال: أمر الله المؤمنين أن لا يقرّوا المنكر بين أظهرهم

87 سنن أبي داود، من رواية جد عمرو بن شعيب، وسكت عنه، وقد قال في رسالته لأهل مكة كل ما سكت عنه فهو صالح.

فيعمّهم الله بالعذاب"[88].

ويقول عليه الصلاة والسلام: "**ما من رجل يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي يقدرون على أن يغيروا عليه فلا يغيروا إلا أصابهم الله بعذاب من قبل أن يموتوا**"[89].

ويقول جرير بن عبد الله رضي الله عنه: "**بايعتُ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم على النّصح لكلّ مسلم**"[90].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: "**لا يؤمن أحدكم حتّى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه**"[91].

وعن النّعمان بن بشير عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال:

"**مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا، ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا**"[92].

وعن عبد الله بن مسعود أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: "**إنّ أوّل ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول يا هذا اتق الله ودَعْ ما تصنع فإنّه لا يحلّ لك ثمّ يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلمّا فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثمّ قال: (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ * كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ * تَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ...) إلى قوله (فاسقون)[93] ثم قال: كلاّ والله لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر ولتأخذنّ على يدي الظالم ولتأطرنّه على الحق أطرا ولتقصرنّه على الحقّ قصرا**"[94].

وعن أبي بكر رضي الله عنه أنّه خطب فقال: "**يا أيّها الناس إنّكم تقرؤون هذه الآية وتضعونها على غير ما وضعها الله: ﴿يا أَيُّها الذينّ آمَنوا عَلَيْكُمْ أنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّنْ ضَلَّ إذا اهْتَدَيْتُم﴾ سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: إن الناس إذا رأوا المنكر بينهم فلم ينكروه يوشك أن يعمهم الله بعقابه**"[95].

---

88 جامع البيان، للإمام ابن جرير الطبري.

89 سنن أبي داود، من رواية جرير، سكت عنه، وقد قال في رسالته لأهل مكة كل ما سكت عنه فهو صالح.

90 صحيح مسلم.

91 صحيح البخاري.

92 صحيح البخاري.

93 المائدة: 78 - 81.

94 سنن أبي داود، سكت عنه، وقد قال في رسالته لأهل مكة كل ما سكت عنه فهو صالح.

95 إسناده صحيح، مسند أحمد، من رواية قيس بن أبي حازم.

ونصوصٌ أخرى كثيرة تؤكّد على مسؤوليّة المسلم الجماعية التضامنيّة تجاه إخوانه من المسلمين، ولكنّنا نكتفي بهذا القدر، فلا نحتاج بعد هذا البيان إلاّ أن نسلّم بأنّ الالتزام الفرديّ بالإسلام لا يكفي وحده حتى ينجو المسلم في اليوم الآخر، بل لا بدّ معه من الشعور بالمسؤوليّة تجاه إخوانه من المسلمين، بل تجاه البشر جميعهم، ولا بدّ له من النصح للمسلمين، ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن دفع المظالم عن إخوانه. وذلك هو مقتضى الهويّة الإسلامية الواحدة، والانتماء الإسلامي الواحد، وقبل ذلك هو مقتضى من مقتضيات هذا الدين.

في الطريق إلى هويّتنا

يقول المؤرخ **"برنارد لويس"**: "كلّ باحث في التاريخ الإسلامي يعرف قصة الإسلام الرائعة في محاربته لعبادة الأوثان منذ بدء دعوة النبي (صلّى الله عليه وسلّم)، وكيف انتصر النبي (صلّى الله عليه وسلّم) وصحبه، وأقاموا عبادة الإله الواحد التي حلّت محلّ الديانات الوثنية لعرب الجاهلية، وفي أيّامنا هذه تقوم معركة مماثلة أخرى، ولكنها ليست ضدّ اللات والعزى وبقية آلهة الجاهليين، بل ضدّ مجموعة جديدة من الأصنام إسمها: الدولة، والعنصر، والقومية.

وفي هذه المرة يظهر أنّ النصر حتى الآن هو حليف الأصنام، فإدخال هرطقة القومية العلمانية، أو عبادة الذات الجماعية كان أرسخ المظالم التي أوقعها الغرب على الشرق الأوسط، ولكنّها مع كلّ ذلك كانت أقل المظالم ذكراً وإعلاناً.. " ا.هـ.

ويقرّر نفس المؤرخ حقيقة ناصعة فيقول: "فالليبرالية، والفاشية، والوطنية، والقومية، والشيوعية، والاشتراكية، كلها أوروبية الأصل مهما أقلمَهَا وعدَّلها أتباعها في الشرق الأوسط"[96].

وهذه الحقيقة قد تبيّنت لنا حين راجعنا الخلفيّة التاريخيّة لانحراف الهويّة الإسلاميّة في فصل سابق، وهي أنّ الوطنيّة والقوميّة ما هي إلا بضاعة غربيّة لا تمتّ بصلة إلى التاريخ الإسلاميّ العريق فضلا عن أن يكون لها صلة بالإسلام كما يريد بعض الناس!

والمسلمون اليوم هم في طريق العودة إلى هويّتهم التي ضاع ألقها بين الهويّات الجاهليّة الضاربة أطنابها في عالم الناس اليوم. وقد تبدّت آثار ضعف هذه الهويّة بين المسلمين في مظاهر كثيرة:

لقد تبدّت بانسلاخ الكثير من أبناء هذه الأمّة من انتمائهم الإسلامي ليكون انتماؤهم الذي يعلونه فوق كلّ شيء هو الانتماء "للوطن" أو الانتماء "للعروبة"، حتّى قال قائلهم: "أنا عربي يا جحش"! مفاخرًا بها ومعتزّا على من ينادي بالهويّة الإسلاميّة، مع أن العزّة لا تكون إلا لله ولرسوله وللمؤمنين.

ولقد تبدّت باتباع المذاهب والأفكار الغربية اللادينيّة من علمانية وشيوعية ولبراليّة واشتراكية وغيرها من الأفكار الجاهلية التي جاءت مع الغزو الفكريّ للأمّة الإسلاميّة.

ولقد تبدّت في موالاة أعداء الله الكفّار، والاستعانة بهم على المسلمين كما حدث في كثير من بلدان العالم الإسلاميّ من قبل من يتحكّم في بلاد المسلمين من أذناب الغرب وعملائهم.

ولقد تبدّت في قبول النفوذ الغربي في بلاد المسلمين لتحصيل مصالح دنيويّة، وتمكينهم من السيطرة على وجهة البلاد الإسلامية في جميع النواحي؛ السياسية، والاجتماعية، والتربوية، والتعليمية، والاقتصادية.

ولقد تبدّت في التقليد الأعمى لكلّ ما يأتينا من الغرب من أزياء وشعارات وعادات وأعياد ومناسبات، حتّى صار العالم الغربيّ هو محور تطلّعات الكثير من أبناء المسلمين وبناتهم؛ فيكون الجديد فيه من العادات والشعارات والأزياء والمناسبات هو الذي يتتبّعه هؤلاء بشغف، ويكون أوّل من يرصد هذه المظاهر كلّها ويطبّقها في بلاد المسلمين هو صاحب "المفخرة" الذي

---

96 نقلا عن "هويّتنا أو الهاوية" للدكتور محمد إسماعيل المقدّم.

يواكب العصر بكل مستجدّاته!

ولقد تبدّت في ضعف اللسان العربي، وضعف التحدّث باللغة العربيّة ولو بلجهة عامّية، واستخدام كلمات وتعبيرات للغات أجنبيّة أثناء الحديث مع العرب كالإنجليزيّة والفرنسية والعبرية وغيرها[97].

والمخاطر التي تهدّد الهويّة الإسلاميّة كثيرة أيضا، وقد ذكرنا في الفصول السابقة أبرز التيارات التي هدّدت ولا زالت تهدّد الهويّة الإسلامية وتحاول طمسها؛ كالوطنيّة والقوميّة. وهناك مخاطر أخرى أهمّها "العولمة" التي تعمل على طمس معالم الهويّة الإسلاميّة، وتذويب شخصيّة المسلم وصهرها في أتون "الثقافة العالمية". ممّا يؤدّي إلى تشويه هويّة المسلم بعد أن يضعف استقطاب ثقافته الإسلامية له أمام قوّة الاستقطاب للثقافة الغربيّة الطاغية في العالم. ولا مجال لإنكار كيد أعداء الأمّة الإسلاميّة لها في هذا الباب، فهو ثابت حتى يُبعث الخلق يوم القيامة: ﴿**وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ**﴾ **(البقرة: 217)**. وقال تعالى قبل ذلك في نفس الآية: **"وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ"**. وإنّ فتنة المسلم عن دينه وتمييع هويّته عن طريق اختلاطها بغيرها من الهويّات وضعفها أو طمسها لهي من أخطر الفتن التي يتعرّض لها المسلمون في الواقع المعاصر.

والتيّارات العلمانيّة التي تعمل داخل العالم الإسلامي هي من أشدّ المخاطر على هويّة الأمّة؛ حيث تعمل هذه التيّارات والأحزاب والجمعيّات على "تغريب" ثقافة الأمّة، وعلى تغيير انتماء المسلم بدعاوى الوحدة الوطنيّة والانتماء العربيّ الواحد، وتعمل على بعث التراث الوثنيّ في كل بلد من بلاد المسلمين بغية إعلاء الرابطة الوطنيّة على الرابطة الإسلامية، وعلى إحلال الثقافة الغربيّة مكان الثقافة الإسلاميّة في عقول المسلمين. وتتمحور حول قضايا دخيلة على الأمّة الإسلامية كقضيّة تحرير المرأة، والتخلّص من سيطرة رجال الدين، وغيرها من القضايا. مع أنّ النظرة الموضوعية لمشكلات العالم الإسلاميّ "الأصيلة" تكشف بأنّ قضيّة "تحرير المرأة" وقضيّة "التخلّص من سيطرة رجال الدين" هي قضايا غريبة على العالم الإسلامي، نشأت في أوروبّا في ملابسات خاصّة بالقوم هناك، وإنّما هؤلاء مقلّدون حملوا الثقافة الغربية وحملوا معها مشكلات القوم لينعقوا بها في بلاد المسلمين[98]!

والمناهج التعليميّة مليئة بما يطمس هذه الهويّة ويعاديها؛ فواضعوا هذه المناهج هم في الغالب من المتغرّبين أصحاب الأفكار العلمانيّة القوميّة والوطنيّة، فكان طبيعيّا أن تكون الثقافة التي يضعونها لتشكيل عقليّة الطالب المسلم منسجمة مع أفكارهم ومفاهيمهم.

وامتلأت العقول المتغرّبة بالأفكار والمناهج الهدّامة المخالفة للفطرة فضلا عن مخالفتها للإسلام! كالحداثة والوجوديّة واللاأدرية ونسبية الحقائق والإباحيّة، ورسبت هذه الأفكار في مجتمعات المسلمين وكان لها أثرها الفاعل في خلخلة تماسك القيم الإسلاميّة، ممّا أسفر عن أمراض وانحرافات نفسيّة واجتماعيّة وتربويّة وجنسيّة كثيرة.

---

97 إقرأ إن شئت مقالي "اللغة الهجينة: أسباب الولادة وعوامل الإجهاض"، وهو منشور على مدوّنتي "مدونة أضواء"، وعلى موقع "المركز العربي للدراسات والأبحاث".

98 إقرأ في هذا الصدد كتاب "قضيّة التنوير في العالم الإسلامي" للأستاذ محمد قطب.

ولا زال الإعلام العلماني المنتشر بقوة يقوم بمهمّته في إضعاف الهويّة الإسلامية وتذويب القيم عن طريق ما يعرضه من فكر تغريبيّ، ومن تفاهات يشغل بها عقول الناس فيصرفهم عن الاهتمام الجادّ بقضايا أمّتهم، وعن طريق إبراز شخصيّات تافهة من الفنّانين والفنّانات كي يتّخذها أبناء الأمّة وبناتها قدوات ونماذج للشخصيّة الناجحة في الحياة! وعن طريق العمل على نشر مفهوم خاطئ للدين يحصره في العبادات والشعائر الفرديّة ويظهره كدين "أخرويّ" لا علاقة له بالقضايا الكبرى في الحياة الدنيا كنهضة الأمّة وهويّتها وغيرها من القضايا.

الطريق إلى هويّتنا.. من أين نبدأ؟

يقول الأستاذ محمد قطب في كتابه "**مفاهيم ينبغي أن تصحّح**":

"وأول ما نبدأ به من هذا الجهد، هو تصحيح منهج التلقّي... من أين نتلقّى فهمنا لهذا الدين؟ من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وسيرة السلف الصالح رضوان الله عليهم؟ أم مما دخل على هذا الفهم الواضح المستقيم من أفكار دخيلة ومنحرفة، بتأثير عوامل متعدّدة في أثناء المسيرة الطويلة للأمة الإسلامية، واحتكاكها الدائم بأخلاط من المذاهب، وأخلاط من الأفكار؟ فإذا صحّحنا منهج التلقّي، وصحّحنا بناء على ذلك ما انحرف في حسّ المسلمين المتأخرين من مفاهيم الإسلام الرئيسيّة، بقيت علينا مهمّة أخرى لا تقل خطرًا، هي مهمّة التربية على المفاهيم الصحيحة لهذا الدين. والتربية هي الجهد الحقيقي الذي ترجى معه الثمرة، ولكنّه لن يؤتي ثمرته حتى يقوم على أساسه الصحيح"[99].

ويقول الأستاذ الداعية خبّاب بن مروان الحمد معدّدًا أبرز الأساليب للحفاظ على الهويّة الإسلاميّة، في مقال له بعنوان "**هل الهويّة الإسلاميّة في خطر؟**":

ومن أبرز الأساليب للحفاظ على الهوية الإسلامية عدّة نقاط:

1- التعلُّق بالله عزَّ وجل والاستعانة والاستعاذة به، وسؤاله الهداية والثبات والممات على دين الإسلام من غير تبديل ولا تغيير.

2- الثِّقة بمنهج الله ووعده وحكمه وأوامره، واليقين به ومراقبته، والشعور بالمسئوليَّة عن حفظ الدين من شبهات المغرضين، وعدم خلطه بالباطل.

3 - تلقِّي العلم عن العلماء الربَّانيين، وإرجاع المسائل المشكلة إليهم ليحلُّوها ويوضِّحوا ما أبهم على صاحبها، فلا يستعجل في قبول فكرةٍ أطلقها من لا يؤمن فكره، ولا يبقي تلك الشُّبهة في صدره حتَّى تعظم، بل ينبغي عليه أن يضبط نفسه بالرجوع للراسخين من أهل العلم؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾ (**الأنبياء: 7**).

4- البناء الذاتي بمعرفة مصادر التَّلقّي، ومناهج الإستدلال الصحيحة، وملء القلب بنور الوحي من الكتاب والسنَّة، مع ملازمة إجماع أهل السنَّة والجماعة.

---

99 مفاهيم ينبغي أن تصحّح، الأستاذ محمد قطب.

5- التعلّق بكتاب الله قراءة وفقهًا وتدبُّرًا وعملاً، ولو أقبل الخلق على كتاب الله والانتهاج بنهجه، لأجارهم سبحانه من الفتن، فالقرآن شفاء لما في الصدور، ومن يعرض عنه فسيصيبه من العذاب بقدر ابتعاده عنه: ﴿**وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا**﴾ (**الجنّ: 16، 17**).

6- تكثيف البرامج التوجيهيّة، وأخصُّ بالذكر وسائل الإعلام بشتّى أصنافها، ومحاولة زرع الثقة في قلوب المسلمين بالاعتزاز بدينهم وعقيدتهم.

7- إنشاء مراكز الأبحاث والدراسات المعنيّة برصد الإنحرافات الفكريّة، والتعقيب عليها بتفنيد الشُّبه، والجواب عن الشكوك والإثارات التي تخرج من بعض المارقين من قيم الإسلام ومبادئه، والجهاد الفكري ضدّها، من منطلق قوله تعالى: ﴿**وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا**﴾ (**الفرقان: 52**).

8- التربية للنشء بما يرضي الله، والتحاور معه بتبيين فساد شبهات أهل الزيغ والهوى، مع قوّة الإقناع، وأدب الحوار، فالتنشئة الصحيحة على التحصين العقدي هي أوّل عمليّة في التربية"[100].

ونضيف إلى هذه الأساليب أيضًا أهمّيّة التصدّي بالبيان للهويّات والنعرات الوطنيّة والقوميّة التي تعكّر صفاء عقيدة المسلم، ولأنّها تؤدّي إلى التعصّب والتفرّق المذمومين في دين الله عزّ وجلّ.

إنّ تجلية راية لا إله إلا الله ممّا يشوبها أمرٌ أساسيّ لصحة اعتقاد المسلم أوّلا، ثمّ هي أمرٌ أساسيّ لنهضة هذه الأمّة ورفعتها وتمكينها. يقول تعالى: ﴿**وعَدَ الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلفَ الذين من قبلهم وليمكّننّ لهم دينهمُ الذي ارتضى لهمْ وليبدّلنّهم من بعد خوفهم أمنًا يعبدونني لا يشركون بي شيئًا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون**﴾ (**النور: 55**). فإفراد الله تعالى بالعبادة هو شرط النهضة الأول لهذه الأمّة، وهو أمرٌ عقديّ في الأساس، ومظاهر نهضة الأمّة كما في الآية الكريمة هي: (**الاستخلاف والتمكين والتأمين**).

واليوم لا استخلاف ولا تمكين ولا تأمين! فكان من الواجب على هذه الأمّة أن تراجع عبادتها لله وتنظر فيما قصّرت. ومن الواضح الجليّ أن الأمّة تخلّفت بشكل أساسيّ في "عقيدتها"؛ فقد ضعفت هذه العقيدة في النفوس، وضَعُفَ تأثيرها على واقع المسلمين منذ أن شابَ صفاءها لوثاتُ الإرجاء والتصوّف ثم العلمانيّة في العصر الحديث. عملتْ هذه اللوثات على جعل الإيمان ومقتضياته مجرّد عقيدة في الضمير وشعائر للتعبّد[101]، فكان ذلك منفذا لسيطرة مذاهب ونزعات دخيلة على حياة المسلمين. ومن هنا دخلت العلمانيّة ودخلت الوطنيّة والقوميّة وسائر التصورات الغريبة على الإسلام، فحين خَفَتَ تأثيرُ عقيدة الولاء والبراء على سلوك المسلم وخفتَ انتماؤه للناس على أساس رابطة الإيمان، احتلت القوميّة والوطنيّة المساحات المنحسرة في حسّ المسلم من الولاء. فكان لا بدّ من تصحيح هذا الانحراف في "التصور" الذي أنتج هذا الانحراف في "السلوك"، وكان هذا البحث خطوة متواضعة في طريق إحياء الأمة حتى يعود لها مجدها ونهضتها ورفعتها وتمكينها بعد أن تعود إلى حقائق دينها فهمًا وتطبيقًا.

---

100 هل الهويّة الإسلاميّة في خطر؟ مقال للشيخ الأستاذ خبّاب بن مروان الحمد، منشور على موقع طريق الإسلام.

101 يراجع مقال "أزمة العقل المسلم في الداخل الفلسطيني"، وهو منشور على مدوّنتي "مدونة أضواء" في الشبكة.

والذي يقولون اليوم: إنّ هذا الطرح للهويّة الإسلامية هو أشبه ما يكون بالتحليق في عالم الأحلام! وإنّ الواقع أبعد ما يكون عن تحقيق الهويّة الإسلاميّة بصورتها الجماعية.

الذين يقولون هذا الكلام جاهلون! لأنّهم لا يدركون طبيعة التغيّرات الكبرى التي تجري وفق سنن الله سبحانه وتعالى في هذه الحياة الدنيا.

إنّهم يرون في أيّة محاولة لمخالفة المعايير السائدة التي تحكم جميع العالم اليوم نوعا من "التطرّف"! إذ يرون في رفض أفكار الوطنيّة والقوميّة ضربًا من الخيال بعيدا عن الواقع. وإنّني لأحسب أنّ هؤلاء يرون الصورة بهذا الشكل بسبب النظرة القريبة المحدودة التي ينظرون بها إلى الأوضاع في العالم، فلو أنّهم تذكّروا أنّ هذه المبادئ لم يتجاوز عمر بعضها أكثر من مائة عام في بلاد المسلمين، وأنّها قبل ذلك كانت مستهجنة كما يستهجنون هم اليوم الدعوة إلى قلب المعايير القوميّة والوطنيّة والعودة إلى مفاهيم الهويّة الإسلاميّة! وأنها ما رسخت في بلاد المسلمين من دون "دعوة" مكثّفة قامت بين الناس، قادَها في بلاد المسلمين مفكّرون وعلماء وقادةٌ وسياسيّون ومدسوسون ومستغفلون، عملوا على "تربية" العقلية المسلمة عبر العقود على تقبّل هذه المفاهيم وكأنها هي "الأمر الواقع" الذي لا مفرّ منه بعد بثّها وتجميلها.. فلو أنّهم تذكّروا هذه الحقائق ماذا عساهم قائلون؟!

إنّ المشكلة عند هؤلاء فيما أحسب تكمن في إضفاء الشرعية على **"الأمر الواقع"**، باعتباره **"حتميات تاريخية"** لا يمكن التنكّر لها أو مخالفتها، وهم في هذا قريبون من التفسير المادّي للتاريخ الذي يرى في الهويّة الإسلامية رابطة تجاوزها التاريخ! متغافلا عن أنّ التطبيق الواقعي لمفهوم ما على مدى قرون ونجاحه في هذا التطبيق بدرجات كبيرة (كما هو حال الهوية الإسلامية) لهو رصيد أساسيّ لدعم فكرة إعادة هذا التطبيق! ومتغافلا كذلك عن أنّ دور الإنسان في تغيير الواقع وفقًا للمبادئ التي يؤمن بها هو دور أصيل لا يمكن التنكّر له أيضًا، حتّى لو كان هذا التغيير يسير بشكل بطيء.

وحين نعود في التاريخ إلى تجربة أوروبّا نتساءل: أوَ كان يتصوّر أحدٌ من الناس في عهود الرابطة الكنسية الدينيّة قبل نشوء القوميّات أنّه يمكن إقامة دول على أساس القوميّات؟ ثم هل كان أحد يتصوّر بعد ذلك في عهود الصراع الدمويّ بين هذه القوميّات الأوروبيّة المختلفة أنّه سيأتي يوم وتتّجه أوروبا إلى الوحدة مرّة أخرى كما هو حالها الآن؟!

إنّ المشكلة تكمن في جعل الواقع "مصدرًا" للمبادئ، بدلا من محاولة تغيير هذا الواقع وفقًا لهذه المبادئ ولو بالطريقة التراكميّة البطيئة.

وأقول لهؤلاء: ألم تقم الثورة الفرنسيّة بفرض القيم "الديمقراطية" وقيم "الدولة المدنية" الحديثة بعد عقود طويلة من النشاط الذي قام به مفكّرون وعلماء ونشطاء ومربّون يدعون إلى هذه المفاهيم التي كانت غريبة على "الواقع" الموجود آنذاك، وبعد جهد كبير من التضحيات في سبيل تحقيقها؟ ثمّ ألم ينجح هذا الحراك المجهد الطويل في إحداث التغيير المنشود لديهم وقلب المعايير التي كانت في يوم ما هي "الواقع" الثقيل المعهود؟! فما بالنا نتنكّر لقيم الإسلام الأصيلة حين تطرحها الدعوة وتواجه بها المفاهيم العلمانية الدخيلة على فكر الأمة بحجّة ثقل الأمر الواقع؟! ما بالنا لا ننظر إلى المستقبل المشرق البعيد كما ننظر إلى الواقع الفاسد القريب؟! ما بالنا نجعل من "الواقع" منطلقا في "التفكير" بدلا من جعله منطلقا "للتغيير"؟!

كنتُ قد خلصتُ إلى تعريف عامّ للنهضة في مقالي **"معالم النهضة الإسلامية"**[102] على أنّها: **عمليّة تحرّر من حالة راهنة غير مرضية إلى حالة منشودة وفق مفاهيم الأمة التي تطلب النهوض**. فلئن كان هذا هو المعنى العامّ للنهضة كان بديهيّا أن يصبح **(ما ينبغي أن يكون)** هو ركيزة "التغيير"، وليس **(ما هو كائن)**، دون تجاهل لما هو كائن؛ فمراعاة الواقع وأحوال الناس أمرٌ لازمٌ لدعاة التغيير، ولكنّنا نقصد أن تكون مبادئ الإسلام هي الصورة التي يهدف التغيير إلى تحقيقها. فإذا كان اعتبار الواقع المطلوب تغييره في النهضة أمرا غير قابل للتجاوز، كانت تلك هي النكبة التي يصاب بها أيّ مشروع للنهضة! فماذا تكون النهضة سوى ذلك الجهد المبذول المتحرّك في المساحة التي بين **(الموجود)** و**(المنشود)**؟

إنّ الواقع الذي نعيشه اليوم في العالم العربيّ والإسلاميّ لم ينشأ من فراغ، كما أنّه لم ينبت فجأة حتى يكون تغييره موقوفا على انقلاب سريع على الأوضاع! بل هو واقع منحرف نشأ خلال ظروف تاريخية كثيرة يعود بعضها إلى أكثر من ألف عام، ويعود بعضها الآخر إلى أقلّ من مائة عام! فكان من الطبيعيّ أن تحتاج مشاريع إحياء الأمّة وإنهاضها إلى جهد كبير؛ كي تستطيع إخراج هذه الأجيال المسلمة التي وَعَتْ مفاهيم الإسلام الشرعية، وتمثّلتها في قلوب نابضة بالحق، وتربّت على مقتضياتها حتى رسختْ في ضمائر أفرادها سلوكا حيّا لا مجرد أفكار جامدة!

بقي أن أقول إنّ الكلام سهلٌ في حقيقة الواقع، ولئن كان من الضروريّ وجود "التصوّر" الصحيح، فإنّ ألف كتاب مثل هذا الكتاب، وألف محاضرة في الموضوع، وألف بحث ومقال لن يغيّروا من الواقع شيئًا إنْ لم يوضع كلّ ذلك على محكّ التطبيق الفعليّ، ودون أن يكون "العمل" هو الذي يصدّق ذلك أو يكّذبه.

فالله أسألُ أن يسخّر لهذه الأمّة من أبنائها الدعاة المخلصين الجادّين من يغيّر بهم هذا الواقع، منائرهم علماء أهل السنّة والجماعة العاملين بما في الكتاب والسنّة، وطريقهم محفوفٌ بتخوم الهدى، وجهدهم محفوظ عند ربّ العالمين.

فمن هم أولئك الغرباء الحائزون على شرف هذه المهمّة العظيمة، والمعنيّون بقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلّم: **"إنّ الإسلام بدأ غريبا، وسيعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس"**[103]؟

أتكون أنت منهم أيّها القارئ الكريم؟

أسأل الله الإخلاص في القول والعمل، وأسأله أن يهدينا سواء السبيل، والحمد لله ربّ العالمين.

21.11.1432

عكا

---

102 منشور على "مدونة أضواء"، وكذلك على "المركز العربي للدراسات والأبحاث".

103 إسناده صحيح، رجاله ثقات، السلسلة الصحيحة للشيخ الألباني.

فهرس الموضوعات